

# حَوْل رِوَايَةِ «مِيرَامار» استشراف الرهزيمة قبل النكسة

بقلم صبري حافظ

اللحظة الحضارية التي صدر عنها والتي حاول ان يحمل بين طياته ملامحها الفريدة والمميزة والمرهصة في الوقت نفسه بكل ما حدث في مطلع ذلك الصيف الدامي الرهيب .. ولنتجاوز الان هذه المقدمات لنندلف الى عالم الكاتب كما تقدمه لنا روايته الاخيرة تلك (ميرامار) .

## (1) حلقة .. في سلسلة طويلة

اذا كان ثمة اجماع على ان نجيب محفوظ قد بدأ ( باولاد حارتنا ) مرحلة روائية جديدة تبلورت ملامح ميلادها عبر ( اللص والكلاب ) و ( السمان والخريف ) ثم تأكدت هذه الملامح وعمقت على الصعيدين الفني والفكري في ( الطريق ) و ( الشحاذ ) و ( ثرثرة فوق النيل ) .. فاني استطيع القول بان روايته الاخيرة ( ميرامار ) تمثل انعطافا بارزا في هذه المرحلة الروائية . او تعد - بصورة اخرى - بداية لمرحلة روائية جديدة وذلك لسببين رئيسيين . اولهما ان نجيبا قد فرغ من رواياته الثلاث السابقة - ( الطريق ) و ( الشحاذ ) و ( ثرثرة فوق النيل ) - من معالجته الروائية لمأساة الوجود الفردي بشتى تنوعاتها وبكل الهموم التي تطرحها ، مؤكدا عبر هذه الروايات الثلاث ان الانسان محكوم عليه بان يعيش هذه الحياة برغم عدم توافقها مع اغلب احلامه وامانيه . ويرغم فشله خلال بحثه المصني الطويل في العثور على مطلق يهبه الحرية والكرامة والسلام ( الطريق ) ، او يمنحه نشوة اليقين عبر لحظة الخلق اللائحة بسر اسرار الوجود ( الشحاذ ) ، او يبرر له وجوده الفاقد للمعنى ويخلصه من ذلك التردى اللانهائي في وهاد العبث ( ثرثرة فوق النيل ) .. مؤكدا ايضا ان محاولة العثور على المعنى خارج اطار الواقع ودون فهمه او الالتحام الحقيقي به لا بد ان يقضي الى الجريمة ( الطريق ) و ( الشحاذ ) او يقود الى طريق مفلق لا يعد بافضل من الجنون ( الشحاذ ) .

وبعد ان فرغ نجيب في رواياته تلك من معالجة مأساة الوجود الفردي ، واصلا عبرها الى هذه النتيجة ، او الى هذا الطريق المسدود، بدأ في ( ميرامار ) يوجه ادواته الروائية صوب قضية اخرى .. قضية الوجود الاجتماعي ذاته . فالمأساة في هذه الرواية ليست مأساة فرد . ولكنها مأساة شرائح اجتماعية متعددة تصب في مجرى واحد . وقد ادى هذا الى موت أسلوب رواية البطل الواحد الذي سيطر على رواياته الاربعة ( اللص والكلاب ) و ( السمان والخريف ) و ( الطريق ) و ( الشحاذ ) (1) ، والذي بدأت مراسم دفنه في ( ثرثرة فوق النيل ) ليولد أسلوب روائي جديد يتواءم مع طبيعة هذا التغيير المضمون . فبعد ان كان للرواية بطل رئيسي تصب في شخصيته كل شخصيات الرواية الاخرى ، فلا نعرف عن اي منها سوى علاقتها بهذا البطل الرئيسي ومواقفها التي أثرت عليه أو شاركت في صياغة مأساته، أصبح لكل شخص الرواية أهمية تكاد تكون متساوية في البناء الروائي ، حيث يساهم كل منهم بقدر ملحوظ في بناء الشخصيات الاخرى وفي تكوين ابعاد القضية التي تطرحها الرواية ، من خلال

(1) راجع دراسائنا عن هذه الروايات بالترتيب في ( الاداب ) نوفمبر ٦٣ ، ديسمبر ٦٣ و ( المجلة ) ابريل ومايو ١٩٦٦

لم تولد الهزيمة الكبيرة التي مني بها العرب غداة الخامس من حزيران في ذلك اليوم المشؤوم . ولكنها بذرت اجنتها الخبيثة قبل ذلك اليوم بوقت طويل . وتفهد سوقها الفضة الكثير من الظروف الخاطئة والاضاع التائهة التي سيطرت على البلدان العربية طوال سنوات عديدة ، امتدت خلالها هذه السوق الاخطبوطية كأذرع الهيدرا الاسطورية الى كل مكان ، وبحثت لنفسها عن ركن مظلم في كل موقع ، تنطلق منه بخطوات حثيثة دعوية الى غايتها الشريرة ، لتلهم الشروط الصحيحة في كل شيء لتبذر بدلا منها معاييرها المفلوطة ، تبث في كل شيء سمومها بعدما تقتصر منه رحيق الحياة . وقد اخذت هذه السموم تسري في العديد من المستويات حتى بلغ الداء النخاع . فانطقت ذبالة الصباح المترنحة عندما واجهتها لظمة الريح في مطلع ذلك الصيف الدامي الرهيب . وبالرغم من ان هذه الهيدرا الخبيثة حاولت ان تستتر دائما خلف الاقنعة والمساحيق . وان تموه كل تحركاتها بالخدع والاكاذيب ، فانها انكشفت امام بصيرة عدد كبير من الكتاب الصادقين الذين استطاعت كتاباتهم ان تلمس الوجيب الحقيقي للحظة الحضارية التي سبقت النكسة والتي أرهصت بها ، واستطاعت ان تلمس تلك المسارب الضيقة الخبيثة التي تسربت منها جحافلها وركضت في عنماتها ، وان تضع تحت عين القراء هذه الاجنة الكريهة وهي تحاول ان تلهم في نموها الوحشي السريع الكثير من القيم والمعايير . وحاول كل منهم ان يلقى دفقة ضوء على واحد من اذرع هذه الهيدرا الاسطورية وهي تحاول ان تمد اذرعها الى شتى مناحي الحياة .

وقد ظهرت هذه المحاولات في عدد كبير من الاعمال الفنية التي حاولت الاقتراب مخلصه من قلب الواقع والوصول الى جوهر قضاياها كما ظهرت كذلك في عدد كبير من الكتابات النقدية والدراسات الفكرية التي اشارت بشكل او باخر الى الارهصات التي مهدت الطريق الى هذا اليوم الكئيب . واي استقراء نقدي للاعمال الفنية او الدراسات النقدية التي كتبت قبل النكسة يستطيع ان يستكنه في الكثير من الاعمال الادبية والكتابات النقدية التي صدرت بحق عن ضمير اللحظة الحضارية التي مهدت النكسة العديد من الاسباب الصانعة للهزيمة والمهدة لها . وهذه الدراسة في الواقع هي محاولة للبحث عن اذرع هذه الهيدرا الاسطورية التي تغلفت في واقع ما قبل النكسة والتي اطلت في ادب هذه الفترة . وذلك من خلال الدراسة النقدية التحليلية لواحد من الاعمال الفنية التي حاولت ان تستشراف الهزيمة في واقع ما قبل النكسة . وهي رواية نجيب محفوظ الاخيرة ( ميرامار ) .. تلك الرواية التي ظهرت مع اواخر سبتمبر عام ١٩٦٦ عندما كان آخر صيف قبل النكسة يجر ذبوله ليفسح الطريق لذلك الصيف الدامي الرهيب .. صيف عام ١٩٦٧ . وستحاول هذه الدراسة ان تتناول هذا العمل بصورة نقدية صرفة ان جاز هذا التعبير .. لا تستعير من المصطلح السياسي ابدا من ادواته، ولا تحاول ان تسقط على العمل ايا من الرؤى او الافكار التي لم تكن قد تبلورت بعد لحظة كتابة هذا العمل الفني ولحظة نشره . ومن ثم فانها سنتناوله كحلقة في مسيرة الكاتب الفنية وثيقة الارتباط بما قبلها من حلقات وان كانت لها ملامحها الخاصة وسماتها المتميزة التي تعطيها تفردها . وستتناوله في محاولته للاقتراب من جوهر هذه

المشاركة الفعالة في صياغة الأحداث الروائية وفي بلورتها .

هذا هو السبب الأول ، أما السبب الثاني فوليد هذا السبب الأول وناتج عنه ، ومن ثم فإنه ينحت ملامحه من تباين هذه الرواية عن الروايات التي سبقتها في وجوه عديدة . يظل هذا التباين علينا منذ الوهلة الأولى ، وعبر العنوان ( ميرامار ) الذي يمثل ارتدادا الى المرحلة الاجتماعية حيث أعطى المكان اسمه لخمس من أهم روايات هذه المرحلة وهي ( زقاق المدق ) و ( خان الخليلي ) و ( بين القصرين ) و ( قصر الشوق ) و ( السكرية ) . وهذا ليس تغييرا عنوانيا فحسب ، ولكنه تغيير في أسلوب البناء الروائي كلية . فبعد ان كانت الرواية تدور داخل بطل واحد ، وترى كل الأشياء عبر حدقتيه، وتقدم كل ما تريد ان تقوله من خلال تعميها لمأساته ، أصبح المكان هو مركزها الرئيسي الذي تتناول من خلال اعتمادها على احتوائه لعديد من النماذج المتباينة موضوعها الرئيسي . فقد تصدر الموضوع واجهة العمل الروائي ، بصورة كادت الشخصيات معها ان تستحيل في بعض الاحيان الى مجرد تجريدات رامزة الى بعض ابعاد هذا الموضوع او الى بعض زواياه ، وان تراجع في معظم الاحيان عن واجهة البناء الروائي فدورها في هذا البناء يضعها على تخوم الانمط او التلخيصات ومن ثم لا يتسع لها قدرا من الحيوية او الثراء الانساني الذي نجده في الاعمال الروائية التي تضع الشخصيات في المكان المحوري من عملية البناء الفني مثل ( الاحمر والاسود ) او ( الاخوة كرامازوف ) او ( اما ) او ( مادام بوفاري ) او غيرها .

وقد ادى هذا الى اقتصار التركيز على حاضر اغلب الشخصيات وحده دون ماضيها . فنتف الماضي لا تطل الا للحظات عابرة ، بسرعة وبالقدر الضروري الذي يكمل بعض الخطوط الناقصة في بناء الشخصية او يبرر لنا بعض مواقفها او يظهر التناقض الصارخ بين حاضرها ذلك وبين ماضيها الذي كان . ومن هنا كان ضروريا ان يعتمد الكاتب على النقلات السريعة التي تقفز من القص العادي المعتمد على السرد ، الى استبطان انفعالات الشخصية والغوص في اعماقها ، الى استعراض نتف من ماضيها بسرعة وبناء على تخطيط ذهني يصل الى حد القسر المنتصف في بعض الاحيان ، والى الاستفادة من تلال الذكريات المتراكمة داخل وجدانها ، او دفعها الى البوح الذاتي خلال منولوجات ومناجيات ذاتية طويلة ، الى المتابعة الستانية الذكية للحظات الحاضر الذي تعيشه الشخصية . فهذه اللحظات هي التي تشكل العصب الرئيسي للرواية . فعبورها تقدم كل ما تريد ان تقوله . ومن هنا نستطيع القول بان التركيز على لحظات الحاضر هذه يعادل التركيز على شخصية البطل الواحد في الروايات السابقة والتي تنتمي الى الاتجاه الروائي الجديد عنده . فهدف كل هذه النقلات البنائية المتعددة هو تقديم هذه اللحظات حية متوهجة نابضة بالصدق والافئان . وقد تطلب هذا الاسلوب الجديد تقسيم الرواية الى اربعة اقسام . يروي كل قسم واحدا من الشخصيات الرئيسية في الرواية . والتي يلخص كل منها شريحة تاريخية او طبقية او نفسية او كلها معا ، متدما الاحداث من وجهة نظره ومعلقا عليها في آن واحد . فالاحداث لا تظهر في كينونتها المجردة ولكن مضافا اليها رؤية الشخصية لها وموقفها منها وربما تحريضها لها ايضا . فكل شخصية من هذه الشخصيات تكاد تحكي لنا نفس الاحداث ولكن بصورة مقاييرة . . بالصورة التي تقدم بها دفقة رئيسية من الدفقات المتعددة التي تصب في موضوع الرواية الرئيسي . . وهي دفقة من الاحداث والذكريات والرؤى والمشاعر في آن . دفقة تبلور بها أحد ابعاد هذا الموضوع أو تصوغ بعض جوانبسه . فلا نحس باستسلام عامر وجدي لاحساسه بالضياح والزوال ، الا بآثاره واحدا من وجوه المأساة العامة التي تقدمها الرواية . واعني بها مأساة السقوط والضياح . أو مأساة الوجود الاجتماعي لهذه الشرائع مجتمعة في ظل هذه اللحظة التاريخية المحددة . بالصورة التي تجعل الرواية كلها نشودة رثاء عميقة وحزينة تحمل في داخلها البذور

الجينية لاغرودة ميلاد لم تظهر بعد .

لكل هذا أقول ان ( ميرامار ) تشكل انطافا هاما في إنتاج نجيب محفوظ الروائي في المرحلة الاخيرة . الى الحد الذي اعتبرها معه بداية لمرحلة روائية جديدة نتعرف على ملامحها الفنية والمضمونية من خلال التناول النقدي لاحداث هذه الرواية . ومن خلال التعرف على أسلوب بنائها وعلى طبيعة القضايا التي تطرحها . تدور احداث الرواية داخل بنسبون ( ميرامار ) وتقدم لنا عبر احداث اربع من شخصياتها الاساسية . . عامر وجدي وحسني علام ومنصور باهي وسرحان البحيري . . هذه الشخصيات التي يجمعها البنسبون بصورة عرضية ولكنه يربط بينها يرباط عمق بكثير من مجرد الرباط المكاني . فكلها شخصيات محكوم عليها بالسقوط او الضياح او انتظار الموت المتلكئ في الطريق . وكلها تنويعات على لحن تراجيدي واحد . لا يفلت من هذا المصير سوى زهرة . ولكن بعد ان يدركها جزء منه . ويضم البنسبون كل هذه الشخصيات المتنافرة غالبا المتناحرة احيانا ، في رحابة لفترة قصيرة ثم يرحل اغلبها عنه ، ويظل هو في العمارة الضخمة الشاهقة التي تطالعك كوجه قديم يستقر في ذاكرتك فانت تعرفه . ولكنه ينظر الى لا شيء في لا مبالاة فلا يعرفك ، ( ص ٧ ) . . يظل متحصنا بمتاريس الزمن سادرا في شبه ديمومة لا مبالية بالقياس الى الإقامة القصيرة العجولة المؤقتة لسكانه . فمن هم يا ترى هؤلاء السكان ؟ . . عامر وجدي وطلبه مرزوق وسرحان البحيري وحسني علام ومنصور باهي بترتيب وفودهم الى البنسبون . ثم هناك ايضا ماريانا . . صاحبته ومدبرته . وزهرة خادمة البنسبون وبؤرته التي ينصب عليها اهتمام الجميع بصورة او بأخرى .

في هذا البنسبون الغريب تتشابك مصائر هذه الشخصيات كلها وتتقعد العلاقات بينها . تجمع الارض الطبقية المشتركة بين طلبة مرزوق وحسني علام ، وتوحد هذه الارض نظرتها الى زهرة . اولهما يتنبا - مقلدا في النبوءة تنمياته - بانه سيراهما في العام القادم في « الجنفواز » او « مونت كارلو » ويستدعيها الى حجرته وهو شبه عار لتدلعه . بينما يراها الاخر في تصورات زينة لاي شقة يستأجرها في المستقبل . تمارس مهنة ست البيت مع الاعفاء من متاعب الحمل والولادة والتربية . فهي جميلة وسوف تروضها حقارة اصلها على تحمل نزواته وغرامياته اللامحدودة . كما تجمع الاهتمامات الفكرية بين عامر وجدي ومنصور باهي . فتأنيها استمرار للؤلؤ او امتداد له بصورة من الصور . ولذلك تتوحد ايضا نظرتها لزهرة حيث يحدها العطف والفهم والحماية والتمنيات الطيبة . اما سرحان فانه يظل نسيج وحده ، في موقفه من زهرة ومن الاخرين . وكما تجمع بعض الاشياء المشتركة بين بعض الاشخاص تساهم نوعياتهم الخاصة وبعض جزئيات تكوينهم الدقيقة والرهفة في صياغة خريطة العلاقات المتشابكة بين هذه المجموعة ككل . . تلك الخريطة المعقدة التي اسفرت في النهاية عن السقوط والضياح والخيانة . وعن بقاء البنسبون خاليا او شبه خال في نهاية الرواية وكأنه ميدان معركة خاسرة ليس فيه بعدها سوى الانقراض والاشلاء . وحتى نتعرف على ابعاد هذه الخريطة المعقدة . وعلى ادق الجزئيات الضائعة لطبيعة علاقة كل شخصية من شخصيات الرواية بالآخرى . . علينا ان نتناول خيوطها خيطا خيطا . . ولنبدأ بعامر وجدي لننظر عبر حدقتيه العجوزتين على هذا البنسبون الغريب . . وعلى ما يدور فيه من وقائع واحداث .

## (٢) عامر وجدي . . الحاضر في أحداق الماضي

يبدأ الجزء الاول من الرواية ، والذي يحكيه لنا عامر وجدي ، بعنين جارف الى الاسكندرية . يطل علينا من أول كلمة « الاسكندرية اخيرا . الاسكندرية قطر الندى . نفتة السحابة البيضاء . مهبط

الشعاع المسقول بماء السماء ، وقلوب الذكريات المبللة بالشهد والدموع ، (ص ٧) ليقيم لنا ليس فقط احساسه العميق بتلك المدينة السكندرية . وحينه الى البلد الذي شهد أيام طفولته وصباه . ولكن أيضا ضلالا من الابداعات التاريخية والرمزية التي تستفرغ عن بنية وجهها بمد قليل . عاد عامر وجدي أخيرا الى الاسكندرية بعدما تنكرت له الدنيا .. فهل تراها تمنحه الوجه الذي اعرضت القاهرة عن ان تهسه اياه .. عاد بلا زواج أو أبناء ولا حتى عمل . لا شيء سوى المصراع الفليظ والبروستاتا . عند ذلك نادته الاسكندرية مسقط رأسه وما هو يلي النداء . فمن أي شيء تكشف له الاسكندرية أخيرا ؟ . ها هي ماريانا تختار له الحجرة رقم (٦) في الجناح البعيد عن البحر . آخر حجرات البنسيون ولكنها لا تقل في شيء عن الحجرات المطلة على البحر . مستوفية لحاجتها من الاثاث والمقاعد المريحة ذات الطابع القديم . لا يعيبها شيء الا ان جوها يسبح في مغيب دائم ، ( ص ١٢ ) . ليس له اذن سوى هذه الحجرة السابحة في مغيب دائم بالرغم من ان بقية الحجرات المطلة على البحر خالية ، والتي اقام في كل منها حيفا أو أكثر في الايام الخالية . فياله من اختيار تحكمه الاعتبارات الذهنية الصارمة !! . ليس عليه الا ان يقبع في هذه الحجرة الاخيرة « يتذكر أو يفكر أو يستسلم للعاس » فقد اعتزل العمل الصحفي « انتهى كل شيء . انطوت صفحة تاريخ بلا كلمة وداع ولا حفلة تكريم ولا حتى مقال من عصر الطائرة . أيها الاندال ، أيها اللوطيون ، الاكرامة لانسان عندكم ان لم يكن لآعب كرة » (ص ١٦) . وكان ضروريا ان ينزل العمل الصحفي بعدما اجتاحت الصحافة من لفنوا علمهم في السيرك ثم جاءوا اليها ليلعبوا دور البهلوانات . لقد انطوت صفحة من التاريخ بكل معنى الكلمة . تغير كل شيء .. وما هي « الدنيا تنكر بصورة غريبة للعين الكليلية المظلمة بحاجب أبيض منجرد الشعر » وحتى « الهواد المنمش القوي يكاد يقوص القامة النحيل الموقوسة ، ولا مقاومة جديدة كالايام الخالية » (ص ٨) وهذا التغير الذي اجتاحت كل شيء ليس تغيرا في العالم الخارجي فحسب ، ولكن كل شيء فيه هو نفسه تغير .. الى الحد الذي لما نظر فيه الى يده « ذكرتي بيد مومياء في المتحف المصري » (ص ١٢) .

لكن .. من هو هذا العجوز الغريب الطاعن في السن الذي سيشهد كل احداث البنسيون ويحكىها لنا مقارنا بينها وبين الماضي كلما عنت له المقارنة ؟ .. ان عامر وجدي هذا هو الشخصية التي شاهدت مجد هذا البنسيون وعاصرت ميلاده .. لذلك فهو يقدم لنا ليس تاريخه فحسب ولكن أيضا كل احداث عصره الحافلة . فعامر وجدي واحد من الوجوه التي عاشت احداث مصر الكبيرة بدءا من ثورة ١٩١٩ . ورافق مجده ككاتب صحفي وطني سنوات الازدهار التي تالت فيها نجم سعد زغلول . وشهد محتته عام ١٩٢٥ عندما قبع دولة الزعيم سجينيا في يديه بينما عرائض التأييد تزف الى الملك . وهو الذي كان يحسب ان الثورة طهرت النفوس من ضعفها . وكان ذلك العام هو نفس العام الذي اضطرت فيه ماريانا الى فتح (ميرامار) بعد ان قتل (الكابتين) حبيبها الاول والاخير في ثورة ١٩١٩ « قتلته طالب من الطلبة الذين أخدمهم اليوم » (ص ٢٦) هكذا تتعرف بمرارة هادئة . وبعد أن أفلس زوجها ملك البطارخ وصاحب قصر الابراهيمية وانتحر . وقد قضى عامر وجدي في كل حجرة من حجرات البنسيون - الوردية والسماوية والبنفسجية - المطلة على البحر صيفا . وما هو الا يقنع مهيبا بتلك الحجرة السابحة في مغيب دائم - والثاوية في الخلفية عن عمد وتقصد - بالرغم من خلو الحجرات الباقية التي تطل على الواجهة والتي يحتجزها الكاتب لابطاله الاخرين . اختارتها له ماريانا وكانما لتقرن ثانويتها وانفزالها في آخر البنسيون بثانويته وانفزاله اiban الفترة التي تدور فيها احداث الرواية . صحيح انه كان احد الوجوه المضيئة التي تطل على زمن الرواية من الماضي . وصحيح

أيضا انه عاش حياة حافلة عامرة بالمجد والفاعلية . الا انه يعيش الان في انتظار الزوال . تأكله الحسرة احيانا على الايام التي ضاعت . وعلى المذكرات التي نوى ان يكتبها ولكنه لم يفعل . حتى وهنت اليد وضعفت الذاكرة ، واضمحلت القوة ، واصبحت كتابتها من الاماني العسية والمستحيلة معا . فليقبع بين الجدران المورقة وتحت الاسقف العالية المشاة بصور الملائكة (ص ١٢) يجتر الاحزان وحده . ويحترق في وقدة التاملات . فهو لا يملك الا سوى نشف مبعثرة عن « صحبة الشيخ علي محمود وزكريا احمد وسيد درويش . وعن حزب الامة ما أعجبه فيه وما نفره منه . عن الحزب الوطني بحماساته وحماقاته . والوفد بثورته العالية الخالدة . والخلافات الحزبية التي قوقعت في حياض بارد لا معنى له . الاخوان الذين لم يحبهم . والشيوخ الذين لم يفهمهم . الثورة ومقرها وامتناصها للتيارات السابقة . غرامياته وشارع محمد علي . موقفه العنيد من الزواج .. ذكريات لو قيض لها ان تكتب لكانت عجا » ( ص ٢٣ ) ولا يرافقه في البنسيون من ماضيه ذلك سوى طلبه مرزوق بوجهه الكئيب . وباشتات الذكريات المتنافرة التي يستدعيها وجوده او توظفها حكاياته . هذه الذكريات التي ما عد له غيرها في عزلته . معزول في مسقط رأسه لا يعيره أحد التفاتا . منفي في وطنه نفيا كاملا ، الى الحد الذي حكم عليه فيه ان يسمع الغناء الا فرنجي الدائم الذي يكرهه والذي لا يفهمه في آن . غناء بلغة غير لفته ولاناس غيره . لذلك فهو يمتنى لو اخترع المخترعون جهازا يبادل المعتزلين الحديث والسمر في هذه العزلة التي يرجو فيها ان يكون المدخر من نقوده اطول من عمره » ( ص ٢٦ ) . لا يجد في هذه العزلة الكاملة سوى الذكريات التي تعزبه عن تفاهة حاضره الذي يهم الرواية ان تجسده في اوضح صوره . والتي يجد فيها عزاء عن فبوعه المهيض في هذه الحجرة الاخيرة وسلوى .. يجدها في تلقب دولة الزعيم له « بقلب الامة الخافق » في الايام الخوالي .. ايام المجد والجهاد والبطولة ، عندما كان له في الرجاء جانب يرده الاصدقاء . وفي الخوف جانب يتجنبه الاعداء ( ص ١٣ ) . .. ويجدها في موقفه المتشدد من البشوات الذين استسلموا لافراءات حكومة اسماعيل صدقي العميلة في مطلع الثلاثينات وخرجوا على الوفد تحت ضغط أزمة بنك التسليف الذي انشاء صدقي في يوليو عام ١٩٢١ . والذي جعل الخروج على الوفد ، عدوه الاكبر انذاك ، شرطا لاستفادة الوفديين منه وثمنا لتخليصهم به من برائن الازمة الاقتصادية الرهيبة انذاك ( راجع الحوار الذي دار بينه وبين احد هؤلاء الذين باعوا الوفد ص ٦٧ ) . .. ويجدها في خروجه من الوفد بعد أزمة ٤ فبراير عام ١٩٤٢ . وفي تحديه للقوة وايمانه الصلب بواجبه في ايقاظ الشعب « والشعوب تستيقظ بالكلمات » (ص ٢١٨) . .. في كل هذه الاشياء الصغيرة يجد السلوى عندما تثقل عليه الوحدة في الحجرة الخالية بعد الثمانين . لكن هذه السلوى لا تستطيع التغلب ابدا على احساسه العميق بالفناء والزوال . وعلى معاناته من الجمود . فهو يسر عندما يعرف ان منصورا قد قرأ مقالته سرورا بدل على عمق احساسه بالزوال والنسيان والجحود (ص ١٥) . ولا تغلب ابدا على ندمه المرير لانه لم يخلف كتابا . ومن ثم فانه ينصح منصور باهي « احرص في النهاية على ان تؤلف كتابا والا نسيك الناس كما نسوني . لم يبق من الذين لم يتونوا أفكارهم الا سقراط » (ص ١٦) .

عامر وجدي هذا يجد نفسه فجأة وبعد الثمانين ، وسط خضم احداث عجيبة لا دور له فيها سوى دور المتفرج . فبرغم اضطلاعهم بدور وطني بارز في الماضي . فان مجتمع ما بعد الثورة - ثورة يوليو - يجد نفسه في غير حاجة اليه . ينحيه جانبا مع الكثير من الاشياء التي نحاها . بل انه يكاد يلفظه بعدما عجز عن العثور عن عبارة تصلح لراكب طائرة كما قال له من « عينه الزمن الهائل رئيسا للتحريير » ( ص ١٤ ) . .. وهو برغم ذلك ما زال موجودا يحتل مكانه في البنسيون ، وان كان مكانا ثانويا ، ويشارك أيضا في بعض احداثه

البنسيون . بل هما الوحيدان اللذان عرفاه من قبل . . ومن جديد يطلان عليه معا ، ويرقبان معا أحداثه دون مشاركة جدية فيها . غير ان موقفهما من هذه الأحداث مختلف بل ومتناقض . . تناقضا يرتوي من تباين موقفيهما القديمين .

فقد كان طلبة مرزوق من المنتمين لاجزاب السراي . وكان وكيلًا لوزارة الاوقاف ، وكان من الاعيان الكبار . وكان يملك الف فدان . وكان يلعب بالمال لعبا . وكان ... وكان . . كان يجمع في قلبه بين حب الرسول على الطريقة الدرماشية وبين حب المندوب السامي (ص ٢٤) على الطريقة العصرية . وكان يتفق عن سعة على الفيتامينات والمهرمونات والروائح والدهون (ص ٢٤) . . تتلمذ في مدرسة الجزويت ولذلك نراه مولعا مع ماريانا بالاغاني الاخرنجة التي تعذب عامر وجدي والتي تتردد اصداؤها في البنسيون معظم الوقت . وكان عشيقا قديما لماريانا وهي لهذا حفية به . تنوه مرارا بانه كان عشييقها القديم . وهو يذكر هذا الحب القديم في نفس الوقت الذي يؤوب فيه عامر وجدي الى مسقط رأسه بعدما أزاحه المجتمع بالتدرج الى هامش الهامش من حياته . يذكر هذا الحب القديم عندما ضاقت به السيل ولم تعد له اقامة في الريف . وجو القاهرة يصر على اشعاره بهوانه . عند ذاك فكر في الاسكندرية الماخور بينما فكر عامر وجدي فسي الاسكندرية الوطن . فكر في عشيقته القديمة قائلا « لقد فقدت زوجها في ثورة ومالها في ثورة اخرى واذن فسوف يزفان لنا واحدا » (ص ٢٢) . . وهما يزفان بالفعل هذا اللحن الواحد . ولكنه لحن الفشل والندم والخيبة . فما عادت في طاقتيها القدرة على الفعل . أي فعل . . وعندما يرغبان في تحقيق التزاوج القديم الرامز للقاء العميق الدائم بين الاجنبي والعميل تكون النتيجة « فشلا مذبذبا ومضحكا معا » (ص ٢٧٥) . . فما عادت الخصوبة تسيير في ركاب هذا النوع من اللقاءات المحكوم عليها مسبقا ، بعد ان تغيرت الظروف بشكل جذري - بالفشل والخيبة والخسران . وهو لهذا يزف لحنه المنفرد تحت وطأة احساس داهم بالرعب والمراقبة . لانه يعتقد انه قد خسر امواله ثمنا لثكنة غايرة . ومن ثم فانه يعيش في رعب دائم من ان ترويعه عن نفسه أحيانا بالكلام ، قد يؤدي به بعدما وضعه تحت الحراسة او تسبب في وضعه تحت نيرها . . ويحلم - هو الاخر يحلم - بان يسمح له بالسفر الى الكويت اذ يبدو انه قد هرب اليها جزءا من ماله الذي يؤمن بان الاعتداء عليه انما كان اعتداء على كون الله وسنته وحكمته (ص ٣١) ولذلك فانه يحول ثقته العامة على الحاضر الى سعد زغلول الذي دأب على إثارة الاحن بين الناس والتناطول على الملك وتملق الجماهير ، فرمى في الارض ببذرة خبيثة ما زالت تنمو وتتضخم كسرطان لا علاج له . . وحتى هذه النعمة التحولية لا يصرح بها الا عندما يحس بانه في مأمن من عيون الرقباء وآذانهم . اما في الضوء فان الرعب الشديد يدفعه الى الشناء على الثورة بالرغم من انه يتعرض لازمة روماتيزم كلما سمع نداء على اجراءات قتله . ولذلك تسنر كراهيته لمنصور باهي منذ اللحظة التي قال فيها « اني مقتنع بان الثورة كانت ارفق بأعدائها مما يجب » ( ص ٥٢ ) لتعاقب توجيهه الشديد منه عندما علم ان اخاه ضابط أمن كبير . . ولا يأمن جانبا سرحان البحيري بالرغم من احترام سرحان ومجاملته وتودده اليه . وبالرغم من اشفاقه - سرحان - عليه عندما تودد الى الثورة ونوه بمآثرها . ذلك التنويه المنافق الذي اكاد ان الانسان برغم ابتكاراته وانتصاراته ما زال غارقا حتى اذنيه في الحمافة والسخف . بل انه يعتقد ان سرحان البحيري هو اشد الجميع خطورة لانه انتفع بالثورة الى أقصى حد . ودعك من أسرة البحيري التي لم يسمع بها أحد . . فهو يقيس الاشخاص بعراقية اسرهم . ولهذا لا تعقد صلة طيبة بينه وبين احد غير حسني غلام . اخر المنقود في الطبقة الداوية التي ينتمي طلبة اليها . . وحتى زهرة لا تغلت من دانسرة حقدته وكراهيته . خاصة بعدما فشل في ان يتالها . ولم يجد حذاه الا في تشويبهها والسخرية منها والتعليق الهازيء على أفعالها

.. فهو الذي استقبل زهرة . هو أول من استقبلها وحده في غياب الجميع حتى ماريانا . . انشرح لها صدره لما أحس فيها بشيء منه . وارتاح لهذا التماثل الذي تصوره بينهما « لقد هاجرت مثلها مع والدي من القرية . واحببت القرية مثلها لكنني ضقت بالعيش فيها . وعلمت نفسي كما تود ان تفعل . ورميت مثلها بتهمة باطله فقال اقوام انني استحققت القتل . ومثلها فتنني الحب والتعليم والنظافة والامل » فشق طريقه في الحياة متمردا على التعليم في الازهر غير عابئ بتلك التهمة الباطلة التي رساه بها « قوم الازهر العقلاء » وهي تهمة الالحاد التي يلوحون بها في وجه كل من تسول له النفس التملص من اسار كهنتهم او الخروج من أسواره . بل وبالغ في التمرد حتى هزه الشباب فاشترك في تحت مطربة ذات ليلة ، او طرح بعض الاسئلة الخطيرة ببراءة (ص ٢٢) فمن ذا الذي يزعم بانه عرف الايمان . « لقد تجلى الله لابنيائه ونحن احوج منهم الى هذا التجلي . وعندما نتحس موضعنا في البيت الكبير المسمى بالعالم فلن يصيبنا الا الدوار (ص ٢٢) . . فمن تراه يعبأ اذن بمثل تلك التهم الزائفة . نفس تتشوق الى الايمان الحقيقي فيقذف في وجهها بتهمة الالحاد فيا لها من غرابة .

ولاحساسه بهذا التماثل وقف بجانب زهرة . حذب عليها وواساها وظل معها حتى النهاية يشاركها الفهم والنصح والتقدير . . بل اننا نحس به طووال الرواية يمارس معها نوعا من الابوة وان كان في سن جدها . . وزهرة تحس هي الاخرى بانها ابنته . بل هي في الواقع ابنته بوجه من الوجوه . ابنته بصلابتها وتمردا ورفضها للزيف . ابنة الاجزاء التي قتلها الزمن فيه ووارثها الايام التراب . فمن خلالها بعثت تلك الاجزاء التي ما عاد في طاقة الجسد الذي تجاوز الثمانين ان يحتملها . . وهي ليست بعثا لهذه الاجزاء فحسب بل امتداد استمراري لها . وتكاد تكون هذه الابوة هي الفاعلية الوحيدة في حياة عامر وجدي الذي يعيش سنوات الانتهاء معانيا من الوحدة والجحود والنسيان . متمنيا ان يمن الله عليه ببيتة رقيقة . وان يعث ذات يوم اذا ما جمع منصور باهي مقالته في كتاب . ولنتنقل الان الى العجوز النقيض الاخر . . الى طلبة مرزوق الموضوع تحت الحراسة .

### (٣) طلبة مرزوق . . والجانب المظلم من الماضي

اذا كان عامر وجدي هو الجانب المضيء من السنوات الماضية ، وهو وحده الذي يملك حق المقارنة الدائمة بين الحاضر المتعثر والماضي العريق المليء بالاندفاعات الجريئة والحريات القديمة . فان طلبة مرزوق هو الجانب المظلم من هذا الماضي . . الجانب الشديد الظلمة والذي أجهزت عليه الثورة أول ما أجهزت ومن ثم فهو لا يدع فرصة تمر دون ان ينفث فيها سمومه واحقادته وكراهيته لها . وبالرغم من انه يصغر عامر وجدي بعشرين عاما على الاقل ، ووفد بعده الى البنسيون ، فانه يماثله في الهرم . وهذا هو التماثل الوحيد بينهما . فهما نقيضان في كل شيء مختلفان منذ الازل . .

بدءا من المظهر الخارجي . فهو قصير بدين بينما عامر طويل نحيل . وهو تلميذ قديم للجزويت بينما درس عامر في الازهر . وكان من المنتهين الى احزاب السراي ، بينما تنقل عامر بين الاحزاب الوطنية . هو شديد الكراهية للثورة وشديد العداء لها ، بينما يحبها عامر ويحس انه مهد لقدمها بوجه من الوجوه وانها أمتصت ، لاجوات ، حيرته .

.. هما اذن نقيضان في كل شيء . يقدمان الوجهين الابيض والاسود لمرحلة ما قبل الثورة . اكاد اقول انهما وجه العملة القديمة المتلازمان ابدا المتناظران دوما . تعرف عنهما كل شيء تقريبا في وقت واحد ، وفي القسم الاول من الرواية . بل ونعرف كل شيء عن طلبة من خلال عامر وجدي ، ومن خلاله وحده . فهما اول ساكني

كلما سنحت له الفرصة ،

هكذا يمضي طلبه مرزوق أيامه الاخيرة في البنسيون نموذجاً للربح والخوف وفقدان الامان . لا يفعل شيئاً أكثر من انتسلي المهيض على احفاده والتشبيث بيقينه الجازم بأن ليس ثمة ما يدعو احدا الى الالتصاق بالثورة .. ياكله الندم لتردد أمريكا في الاستيلاء على العالم عندما كانت تملك وحدها القنبلة الذرية . فكل ما تتوق اليه تلك الخرقه المهلهلة هي أن تحكمنا أمريكا عن طريق يمينيين معقولين (ص ٢٧٧) .. لكنه يحس باستحالة حلمه هذا . وبأن الأيام تباعد دوما بين هذا الحلم والتحقق . ومن ثم يحاول الهرب الى الكويت حيث تعيش ابنته التي تزوجت من ابن أخيه الثري . ابنته التي ما عادت لها حياة في مصر ما بعد الثورة . فلم تجد الا الكويت ملجأ أخيراً تواصل فيه نمط الحياة التي أجهزت عليها الثورة بالنسبة لها ، وان لم تجهز عليها بالنسبة لآخرين .. وتنتهي به الرواية وهو على حافة الجنون ، بعد خيبته المريرة المضحكة مع ماريانا . لن ينقذه منه الا ان تتاح له فرصة الهرب الى الفردوس المؤقت الذي يتمنى أن يواصل فيه حياته القديمة الحكومة عليها بالزوال .. ولنتنقل الان الى عجوز البنسيون الثالثة قبل ان نطل علينا اجيال الشباب .

#### (٤) ماريانا .. وجه الاسكندرية القديم

هي صاحبة البنسيون العجوز وعشيقة طلبه مرزوق القديمة .. بل وعشيقة كل الوجهاء من أمثاله في الماضي .. تقبع دائما تحت تمثال العذراء وكانها تحتمي بها . وفي ظلها تمارس مساومتها وعهدها وتمارس القوادة بناء على مبادئ الدين القديم .. ولم لا ؟ . ألم تفصل المجادلة بالطرأ أقدام المسيح يا أم المخلص . وبائرغم من أنها يونانية فانها لا تمت لليونان بغير الاصول القديمة . فلم تر أئينا مرة واحدة في حياتها . بل لقد ولدت في الاسكندرية . وهي تذكرنا دائما بوجه الاسكندرية القديم .. اسكندرية الاروام والعاشرات والقوادة الباحة دونما حرج . وتملكها للبنسيون يشي بتاريخ الاسكندرية القديم من جهة . وبالاصول الغربية والعمارة للاستغلال الرأسمالي والمستغلين من جهة اخرى . وهي عاقرة برغم زواجها مرتين . الاولى من كابتن انجليزي مات ابان ثورة ١٩١٩ ، قتله واحد من الطلبة الذين تخدمهم اليوم في بنسيونها . اما الثانية فمن ملك البطارخ السكندري ، الذي أفلس ذات يوم فانتحر .. ولم تعقب شيئاً من الانجليزي ولا حتى من المصري .. واذا كانت الثورة الاولى قد اخذت زوجها الاول وحبيبها الاول والاخير . فقد جردتها الثورة الثانية من مالها المختزن في الاسهم والسندات .

تلك الاموال التي ربحتها ابان الحرب العالمية الثانية عندما واجهت بشجاعة القوادة الخبيرة غارات الالمان . واصرت على البقاء في الاسكندرية بعدما هرب اغلب مواطنيها . وحولت البنسيون الى ماخور لضباط الامبراطورية الشهورين بالبذل والكرم .. وهي تعيش اليوم باذبال الماضي القديم الذي لا يرتد ابدا . وعندما تحاول استعادته ليلة رأس السنة تمنى بخيبة وفشل ذريعين . لكنها تواصل الزهو القديم عندما يفد حسني علام الى البنسيون .. ويتهلل وجهها عندما تعرف بنجاة فدائنه المائة من يد الثورة وكان النجاة لها (ص ٥١) .. ونجاة افدنة حسني نجاة لها بحق ، فهما وجهها عملة واحدة - الاستغلال - يزدهران معا وينوبان معا .. ولهذا فهي تعامله بدهاء قوادة . وبدهاء القوادة هذا تعامل زهرة .. فهي قوادة على مبادئ ( قوية ) .. فاما ان تبقى زهرة شريفة واما ان تعمل - ان سقطت - لحسابها ( ص ٥٩) .. وهي تتمسك بها بشدة حتى تحمل عنها كل اعباء البنسيون . لكن عندما ترى أنها أصبحت الجورة التي اشتعلت حولها النيران في البنسيون ، واصبحت الشخصية الرئيسية التي تدور حولها الاحداث ، تصر على ان تطردها منه ، متوهمة انها بتخلصها منها سوف تعيد للبنسيون هدوءه القديم .. لكن هيهات ..

أما مع منصور باهي فانها تمارس لعبة جديدة . لعبة الاعتراف او تحقيق الذات عن طريق شفوي . رايه له تاريخها : نشأتها المتعمة ، أيام البشوات القديمة وأيام الحروب الحافلة ، ثم فترة الانحدار .. انها امرأة غريبة ومسلية ومرهقة . امرأة عند الزوال .. خرابة اثرية تتعلق باذبال الحياة - كما يراها منصور باهي - ( ص ١٤٦ ) وهي في حاجة ماسة الى هذه اللعبة لتحقيق ذاتها عن طريق شفوي بعدما اعجزتها الظروف عن تحقيقها بالاسلوب الذي تهواه .. انها تثرثر كثيرا عن الماضي لانها تعيش فيه ، تستمرى العيش فيه حتى لا تصحو على الواقع المؤلم الذي تحياه . فتتشبث دوما باذبال ماض انصرم دونما رجعة . تطلب سماع اغنية يونانية عن البنت في سن الزواج .. ماما تسالها وهي تجيب معددة الزايا التي تتطلبها في العريس ( ص ١١٧ ) .. تحلم بهذا العريس الذي ينتشلها من وهاد الضياع والزوال . ومنظرها وهي تستمع الى هذه الاغنية مفضضة العينين من الطروب منظر مؤثر حقا . خاصة ميكبة مضحكة لحب الحياة . أي نمط من الحياة ذاك الذي تتوق اليه .. انها تتوق لذلك النمط من الحياة الرخية البلدية دونما عمل . والتي ما عاد لها وجود في واقع ما بعد الثورة . ومن ثم فانها تعيش مأساة الزوال والانحدار في صمت . متحملة الام الكلي والصفط ، التي تهون الى جانب الام المستعرة داخلها بعدما لم تعد الاسكندرية كما كانت في الايام الماضية ، فالزباله ترى في طرفاتها الان . ( ص ١٧ ) .. وعندما يقول لها عامر وجدي بأنه كان لا بد ان تعود الاسكندرية الى أهلها ، تهتف بحدة « ولكننا نحن الذين خلقناها » هذا الوهم الذي يسيطر عليها بأنها خالقة الاسكندرية التي تتنكر لها اليوم هو الذي يشعل النار فسي داخلها . لتعاني هي الاخرى من مأساة السقوط والضياع ، التي يدور في فلكها عشيقها العجوز القديم طلبه مرزوق ..

ولنتنقل الان الى الشبان الاربعة الذين شاركوا بفاعلية فسي صياغة أحداث الرواية .. ولنبدا بزهرة .. اول الوجوه الشابة التي اطلت على هذا البنسيون القريب .. فللترتيب الذي تفد به الشخصيات على مخطط الرواية الشديدا الاحكام اهميته ودلالته .

#### (٥) زهرة سلامة .. أرض الصراع وبقيته

هي الوجه النسائي الثاني والاخير الذي يطل على هذا البنسيون ، اذا ما استثنينا الزورتين العابرتين السريعتين لكل من صفية البغي وعلية المدرسة . وهي من احدى القرى القريبة من الاسكندرية - الزيادة بحيرة - فكل سكان البنسيون ليسوا من الاسكندرية . عرفت البنسيون عبر زوراتها المتقطعة له بصحبة والدها الذي كان يأتي للبنسيون بكل خيرات الريف المصري .. بالجبن والزبدوالسمن والدجاج . واليه لجأت عندما ضاقت بها القرية حين اراد جدها ان يزوجه من عجوز ميسور . وقبل ذلك حاول زوج أختها ، بندوقاة والدها ، أن ياكل أرضها لكنها زرعت الارض بنفسها . غير أنها في هذه المرة لم تستطع الوقوف في وجه جدها العجوز الذي تفضنت التقاليد القديمة في وجهه ، فهربت الى الاسكندرية .. وكان عامر وجدي اول من استقبلها في البنسيون . فهو الوحيد - على الصعيد الرمزي - من يبين المعجزات الثلاثة الجدير باستقبالها . وكان لها من البداية بمثابة الاب ولذلك أحبته وأفضت اليه بكل اسرارها . وظل هو يكرر دعائه لها بأن يحفظها الله ، طوال صفحات الرواية .

وبمقدم زهرة دبت الحركة في هذا البنسيون القريب .. فوراها ومن أجلها جاء سرحان . وبعده جاء حسني علام ثم منصور باهي . وحولها ، بصورة أو بأخرى ، دارت شبكة العلاقات المقعدة بين كل نزل البنسيون . ومن الوهلة الاولى سنحس من شخصيتها القوية ، وكلماتها المحددة الواضحة التي لا تتلام احيانا مع مكونات شخصيتها الريفية ، بأن الرواية تحمل زهرة دلالات رمزية عديدة ما تلبث ان توميء بها بين لحظة وأخرى وكلما حانت لها الفرصة .

جني القطن في قريته بما لهذا الموسم من دلالات . ويراها « فلاحه بعيدة عن منبتها . غريبة في بنسبون . كالكلب الامين في سعيه وراء صاحب » ( ص ٢٠٦ ) . . انقضت قلبه من الوهلة الاولى . انقضته بعد أن مل صفيحة بل وفرف منها . وعانقت الشهوة في داخله اجنة الحب الوليدة فنصب حولها الشباك . وبعد قليل احس بان الصنارة قد تشبث ( ص ٢١٢ ) فانتقل وراهها الى البنسبون . وازدهر الحب بينهما . لكنها ادركت أنه ينظر اليها من فوق كالآخرين ( ص ٢٢٠ ) فقررت ان تتعلم ، وواصلت الدروس بهمة وعزيمة خارقة . ورفضت ان تتزوج منه زواجا عرفيا اي سريا . بل لقد داست على قلبها عندها علمت بخداعه لها . وبصقت في وجهه ولطمته عليه بقوة مذهلة ( ص ٢٥٥ ) بعد ان عرفت ان مدرستها قد اختطفتها منها .

رغم كل ذلك لم تضعف . بل خرجت من هذه التجربة المحنة وهي ما زالت مصرة على مواصلة تعليمها ، عازمة على تحقيق ما تريد . . ان تتعلم وتعمل وتجد ابن الحلال الجدير بها . ففاتها المشودة هي الثور عليه كما يقول عامر وجدي ( ص ٢٧٤ ) وهو موجود الان في مكان ما ولعله يتحين اللحظة السعيدة المناسبة ، ليكون بديلا لذلك العجوز الميسور لايل للانقراض الذي رفضته في القرية . او لذلك الحرفي الراغب في توسيع افقه بشراء مطعم بنايوتي والذي يؤمن بنفس افكار العجوز الثري البقيض . او لذلك المثقف الانتهازي الذي خدعها . . فقد عرفت الان - بيقين وحزم - من لا يصلحون لها . وبالتالي فقد عرفت بطريقة سحرية الصالح المشود . وتركها الرواية بعد ان انضجتها الايام الاخيرة اكثر مما انضجتها ايام العمر كله . وتركها وهي عازمة على الرحيل في الصباح قائلة بثقة واعتزاز واضحين انها ستكون احسن مما كانت هنا ( ص ٢٧٨ ) . . وعامر وجدي يحمد الله على ذلك مؤكدا « لن انسلك ما حييت أبدا » فمن اجلها عاش وحتى يراها بهذا النضج المأساوي ، الذي اجنازت عبره الكثير من الشراك وتحملت في سبيل النجاة منها العديد من الآلام، فبنت حياتها . . تركها الرواية بعد ان تأكد من ان كل نماذج البنسبون - للملخصة لجانب كبير من معطيات الواقع - لا لها . لا سرحان البحيري ولا حسني غلام ولا حتى منصور باهي فقد رفضت الزواج منه عندما عرض عليها ذلك ، رفضته بحزم . لتواصل مزودة بهذه الخبرة التي اكتسبتها من عالم المدينة ، فوق ما اكتسبته من عالم القرية حياتها الجديدة .

ولنتنقل الان الى الشبان الثلاثة الذين تاق كل منهم الى الاستيلاء على زهرة باسلوبه الخاص . . ولنبدا باخر العنقود في الطبقة الاقطاعية الزاوية . . لنبدأ بحسني غلام .

## (٦) حسني غلام . . نغثات عالم يحتضر

هو راوي القسم الثاني من الرواية ، برغم وفوده الى البنسبون بعد سرحان البحيري الذي تأخر قسمه الى نهاية الرواية حتى يساهم توقف القص في الاقسام الثلاثة الاولى على خير مصرعه في جذب انتباه القارئ وخلق درجة من التوتر في متابعة الاحداث ، وهي حيلة روائية معروفة وساذجة . ويبدأ القسم الذي يروي به حسني غلام بتقديم ملامحه الداخلية بعد ان تعرفنا من قبل على اهم ملامحه الخارجية .

المائة فدان والمشروع الذي يرغب في انشائه . . يبدأ هذا القسم منذ اللحظة الاولى فسي تجسيد تلك اللامبالاة القناعية التي تخفي سعار الفضب والقرف والاحساس بالضياع . . . يبدأ في تجسيد ذلك من السطر الاول « فريكيكو لا تلمني . . وجه البحر أسود محتقن بزرقه . يتميز غيظا . يكظم غيظه . تتلاطم امواجه في اختناق . يغلي بفضب ابدي لا متنفس له . .

ايماءات تصل في بعض الاحيان الى حد الافصاح الواضح اللفظ « ولحقت زهرة فقلت لنفسي انها ممثلة الثورة الاولى ، وتذكرت كيف دعت لها امامي مرة ، وكيف لفحني صدق الدعاء وحماسه الجريء » ( ص ٢٢٥ ) والرواية لا تتعاطف معها فحسب . ولكنها تجعلها محورا لاحداثها . وتقود القارئ الى تحديد موقفه من الشخصيات الروائية المختلفة طبقا لموقف هذه الشخصيات منها . وهي من الوجهة الانفعالية مؤهلة لذلك بالفعل . فهي الفتاة المسكينة المهضومة الحقوق المكسورة الجناح ، المحتاجة دوما الى من يحميها من تلك العقبان المدنية الجارحة ، الناقطة للانقراض عليها . لذلك فانها - الرواية - تتعاطف مع عامر وجدي لموقفه الابوي منها ، وتحنو على منصور باهي لاجساسه العميق بها وادراكه للكثير من ابعاد مأساتها ، وتهج كلا من طلبة مرزوق وحسني غلام لزاويتها بها وظنونهما الريضة فيها، وتحقن سرحان البحيري لتفريه الخسيس بها وخيائنه اياها وعيته الانتهازي بكل مشاعرها وموقفه الجبان منها .

وقد يبدو من الوهلة الاولى ان هذا الموقف يجنح بالرواية بعيدا عن الصدق الفني والموضوعي معا . وان الكاتب يحمل شخصية فلاحه جاهلة حلوة اكثر مما تحتمل . لكن النظرة الفاحصة التي تتعمق الرواية ككل قد تشجب هذه الافكار الاولى . فعلى صعيدي كل من الحدونة الظاهرية المباشرة ، والبناء الفكري الكامن خلف جزئياتها ، سنجد أن موقف زهره والموقف منها مبرران الى حد كبير . فهي على الصعيد الاول تمثل بذرة شخصية متمردة عركها الحقل والسوق معا ، تنتزع أرضها من زوج أختها وتزرعها بنفسها ، ثم تتمرد على تلك الهزيمة القاسية وتهرب الى المدينة . زادها الرئيسي بها هو حديث ابيها القديم عن كل شيء فيها ( ص ٥٧ ) ثم تحذيرات عامر وجدي ونصائح ودهاءه الدائم لها . . فليحفظك الله ، ومن ثم فليس غريبا أن تتود عن شرفها بعناد بغل وصلابته . وليس غريبا ايضا ان تقع بسهولة - وهي ذات مطامح ورفيات تسليقية - في احابيل كلمات سرحان البحيري المعسولة وان تصون خلال مقامرتها معه عفافها . اما على الصعيد الاخر فان جذورها الريفية التي حتمتها من السقوط هي التي تهبطها هذا الثراء بالدلالات . . تلك الفلاحة الحلوة الجاهلة الحاملة بالتعليم والنظافة والامل ، والتي يبرر جمالها الرائق القوي الوديع ولع الجميع بها وتهافتهم عليها . . ورغبة الشبان منهم فيها : كل يفكر فيها بالطريقة التي تتوافق مع رؤاه وتصوراته . . وحتى بائع الجرائد محمود ابوالعباس الراغب في توسيع افاق تجارته بشراء مطعم بنايوتي ، يتوق هو الاخر الى الاستيلاء عليها بطريقة - الخاصة ، بالزواج . . ولكنها ترفضه . ترفضه بحزم ، ليس فقط لانها تحب سرحان البحيري ، ولكن أيضا لانها ادركت أنها ستعود معه الى مثل حياة القرية التي هربت منها ( ص ٧١ ) والتي صارت بمرارة حتى لا تعود اليها « لن ارجع ولو رجع الاموات » ( ص ٦٨ ) .

وتعمل زهرة في البنسبون لتعيش من عرق جبينها . . خادمته في الظاهر لكنها تتربع في الواقع على عرشه « تقف مليئة بالثقة كعمدن غير قابل للكسر ، ( ص ١٥٢ ) وهي الوحيدة التي تنجو من مأساة السقوط والضياع التي تلتهم اغلب ساكنيه ، وان ناشتها بعض زوائد هذه المأساة الرهيبة . وهي الوحيدة التي تخرج في نهاية الرواية اكثر نضجا واكثر قوة واشد تماسكا مما كانت عليه في بدايتها ، وهي الوحيدة التي لم « يضع وقتها سدى ، فان من يعرف من لا يصلحون له ، فقد عرف بطريقة سحرية الصالح المشود » ( ص ٢٧٩ ) . . هي الوحيدة التي تخرج من ذلك البنسبون الكئيب اشد صلابة مما دخلته واكثر وعيا - بعدما استفادت من كسل الصراعات المريرة التي دارت حولها والتي شاركت فيها . فهي مدهشة وذكية وقوية ( ص . ) جميلة ولكنها خفير ذو قبضة حديدية . في سن طالبة جامعية وكان ينبغي ان تكون كذلك كما يرى منصور باهي ( ص ١٤١ ) . . اما سرحان البحيري فانها تذكره بموسم

وبقية العام مضمونة كذلك بفضل الليبيين الذين يفدون اليه محملين بنقود البترول . وينتقل من البنسيون للاقامة مع هذه البقي التي ورثها عن سرحان البحيري . ينتقل للاقامة معها بعد ان اشتسرى الجنفواز واحس بان معالم الطريق قد وضحت امامه ، فلا يعبأ بموت سرحان . فليمت من يموت وليعش من يعيش . فكل ما يهمه ان يحيي ليلة جنونية حتى الصباح في اخر يوم في السنة . فليعش هذه الليلة الجنونية الطويلة قبل ان تهب نفخة ريح تطيح بدباله تلك الشمعة الموشكة على الانطفاء .

وبناء على هذه الحياة تتحدد خريطة علاقته في البنسيون . ومن ثم نجد ان اواصر العلاقة لا تقوم الا بينه وبين طلبه مرزوق الذي يصر دائما على تسميته بطلبة بك . فهو « الشخص الوحيد الذي يضمن له حبا واحتراما . وهو يقوم امام عينه كتمثال اثري للملك قديم دالت دولته وولي زمانه ، ولكنه يحتفظ بكافة مزاياه الذاتية » ( ص ١١٨ ) . . اما بقية شخوص البنسيون فلا تقوم بينه وبين اي منهم علاقة تذكر . . اللهم سوى احترام ماريانا الزائد له ونفاقها اياه . وهي في الحقيقة لا تحترمه هو بل تحترم فيه ماله وطبقته وتريد مشاركته مشروعه ، وهو يبادلها هذا الاحترام ولكنه يضرب بنصائحها عرض الحائط . . اما زهرة فقد حسب انها ستقع في غرامه منذاول نظرة . ولذلك طار صوابه عندما لم تستجب لمدايماته التي تحولت الى توسلات ما لبثت ان رفضت ايضا بازدياد واضح . فاشعلت اعماقه بالغيظ « في سراي علام بطنطا عشرات من امثالك ، الا تفهمين ؟ . . ام ترين ثقافتني دون الكفاية ياروث الجاموسة » ( ص ١٠٣ ) . ولايفلت عامر وجدي من هذه الكراهية « الواقع انني لا احب قلاوون الصحافة . وهيات ان اوفق على خير ما دمت اصبح على وجهه » ( ص ١١٦ ) .

.. وهو يكره منصور ايضا برغم عدم احتكاكهما معا . ولا عجب ان يكون هذا هو موقف طلبة مرزوق منه « شهادة عالية جديدة . وسيم دقيق ولكنه خلو من الرجولة وهو ايضا من الرعاع المصقولين وفي تحفظه ما يقري بالكلمة » . . لذلك فهما يتبادلان - بلا شك - كراهية صامتة . فحتى يحتقر انطواء وغروره وانوته وما يحلي به نفسه من ادب ظاهري رخيص . وقد سمعه مرة في الراديو فهاله صوته الكاذب مثله والذي تحسبه صادرا عن فارس خطيب ( ص ١٢٥ ) . اما سرحان فانه يكرهه من اول يوم . . « قد تهبط كراهيتي له الى درجة الصفر في الاوقات التي يفتح لي فيها قلبه المطبوع على الالفة والمعاشرة . ولكن سرعان ما يرجع الحال الى اصله . ولا دخل لزهرة في هذه الكراهية فهي اتفه من ان تجعلني اكرهه او احب انسانا . ربما لصراحته العمياء احيانا وربما لاصراره على الاشادة بالثورة لمناسبة ولغير مناسبة . لذلك فكثيرا ما ارغمني على مجارته ولو بالسكوت » ( ص ١٢٠ ) .

وهو لهذا يعيش في شبه عزلة ، قابعا في منفاه الاختياري بينيانه المحكم ورأسه الكبير المنتفخ ، وتربمه على كرسيه كانه حاكم . . اجل حاكم ولكن بلا ولاية وبلا محتوى . فقد ذهب ولايته الى غير ما رجعة عندما سحبت الثورة الارض من تحت اقدام طبقته . وقد نشأ هو في هذه الظروف ليكون شاهدا على مرارة الفترة التي تعيشها طبقته ، وعلى ديبب التفسخ والتحلل الذي ينهشها . نشأ بلا رقيب حقيقي فاجتاحه اللهو . وما هو يدرك اليوم ، ومتاخرا ، ان الزمن عدو وليس بالصديق الذي توهمه . فيندفع في لهوه المجنون بلا حدود ، محاولا احياء عهد خليفتنا خالد الذكر هارون الرشيد . لكن عصر الرشيد انقضى . وما هي الحقيقة تنفجر امامه على لسان بنت طبقته ذاتها . . غير مثقف والمائة فدان على كف عفريت . فيطير صوابه . يسقط من عليائه معظما ، معانيا من فندان الثقة ، متوهما بان الجميع يحيطون عاما بجعله وفشله ورفض ميرفت له . . فيظل يخسر ويخسر معللا النفس بقشرة سميقة من الالامبالاة الناطقة في لازمه المتكررة « ( فريكيكو لا تلميذ ) . . والحقيقة ان لا أحد يلومه على الاطلاق . فحظه الليم هو الذي قذف به الى الوجود بعدما شاخ النسر المهيض وكف

يظطرم بباطن محشو بأسرار الموت ونفائاته » ( ص ٨٧ ) . . ليس ما يراه حسني من شرفة سيسيل بهذه الصورة ، هو وجه البحر ، ولكنها صورة اعماقه المضطربة بالقضب والاختناق والاحساس بالصياح . بعد ان عرفته ميرفت قريبتة الحمقاء ذات العيون الزرق التي قررت ان تختار عريسها على ضوء الاشفاق بقولها « غير مثقف والمائة فدان على كف عفريت » . . ورفضت عرضه عليها بالزواج فطار صوابه . أيقظه هذا الرفض على واقعه الدامي . ملقيا في وجهه بذلك السؤال البسيط الغريب . . ما قيمة الارض الآن ؟ . . ذلك السؤال الذي يحاول دون جدوى ان يزيحه بعيدا ، لكنه ما يلبث ان يعود ملحسا في صورة جديدة . . « فريكيكو . . لا تشغل بالك يااشياء تافهة . الخطأ انني صادقت زمنا عدوا وانا احسبه صديقا . ولكني سعيد بحريتي ، لقد قذفت بي طبقتي الى الماء والقارب يميل الى الفرق . ولكني سعيد بحريتي . لا ولاء عندي لطبقة أو وطن أو واجب . ولا اعرف عن ديني الا ان الله غفور ورحيم » ( ص ١٠٩ ) .

هذا الكائن الغريب الذي قذفت به طبقته الى الوجود وهي تتحشرج بانفاسها الاخيرة ، لا يشعر بالولاء لهذه الطبقة التي تلفظ اخر انفاسها بين يديه . انه على حد تعبير منصور باهي جناح من النسر المهيض . لكنه جناح ما زال يرفرف ولا يخلو من قدرة على الطيران . وينقم هذا الجناح على الجسم الذي شاخ . . ينقم على هذه الطبقة التي انجبته وينشفي في محتها الراهنة « ثورة . . لم لا . كي تؤدبكم وتفكرم وتمرغ انوفكم في التراب ياسلالة الجواري . اني منكم وهو قضاء لا حيلة لي فيه » ( ص ٨٧ ) بل انه يعتزم ان يقطع اسبابه بهذه الطبقة نهائيا . وان يبحث عن مشروع يستثمر فيه امواله بالاسكندرية ، عازما على ان يقطع اسبابه بهذه الطبقة بشكل كامل . وان « لا يعود لطنطا الا ليقبض نفودا او يبيع ارضا . فلتنذهب بذكرياتها الى الجحيم » ( ص ٩٦ ) . . فلا ولاء عنده لهذه الطبقة . ولا ولاء عنده لوطن . فهو يرى ان اغلب مواطنيه الاعزاء يخدمون في جهة ويعملون لحساب جهة اخرى ( ص ٨٩ ) . . ولا ولاء عنده لواجب ، بل لا احساس لديه بالواجب اصلا منذ الطفولة الناعمة المدللة التي حرص عمه على ان يوقرها له لانه لم ير امه ، وتركه ابوه وهو في السادسة . . ولم ينفضه زجر اخيه ولا تائبه المستمر له على هروبه من المدرسة وفشله فيها ، لذلك فهو يكره سيرة الشهادات ، ويشعر باستعلاء فارس تركماني يعيش بين رعاع . صقل الحظ بعضهم . . نفس الحظ الذي ينفض شمعته لتنتطفئ ( ص ٩٩ ) .

وهو يحس احساسا عميقا بدباله تلك الشمعة الموشكة على الانطفاء ، ولا يجد امامه من سبيل غير استنفاد كل وهجها قبل ان تنطفئ . فيزور ما يسميه بمراكز الاشعاع الاصلية ، ويعني بها المواخير وبيوت القوادات ، معتبرا جميع النساء حريما متنقلا لزوجا بعدما رفضت ميرفت الزواج منه ففضل ان يبقى اعزب الى الابد حتى لا يرتطم من جديد بلفظة « لا » . . معتقدا انه ينفض عن غضبه الكظيم باغراقه التام في الجنس واخراج اللسان للدنيا ومن عليها . لكن الملل ما يلبث ان يزحف فوق هذه الحياة ، فما اضيق الاسكندرية في عيني سيارة مجنونة ، تمر فيها كالهواء ، ولكنها انقلبت الى علبه سردين . « الليل يتبع النهار في اصرار غبي ، ولكن لا شيء يحدث على الاطلاق . ورغم ان السماء تتزين كل يوم برداء . والطقس كالبهلوان لا يمكن التنبؤ بحركته التالية . والنساء يقبلن في الوان لا حصر لها . فلا شيء يحدث على الاطلاق . الكون في الحقيقة قد مات . وما هذه الحركات الا الانتفاضات التي تند عن الجثة قبل السكون الابدي » ( ص ١٢٢ ) . . برغم كل هذه الغزوات النسائية الفاصرة على مواخير الدعارة يلاحقه الموت والضياح . ويمر الوقت دون خطوة جديدة يخطوها لتحقيق مشروع ، برغم الحاج ماريانا عليه في شراء مقهى ( البرامار ) . . فالاجانب يصفون اعمالهم ويرحلون ، وعليه ان يرث بصورة اوباخري فلولهم المنهارة . وهو بالفعل يرث احد هذه الاشلاء . عندما يشترى ( الجنفواز ) بعد ان تؤكد له صفة انه ملهى ممتاز . صيفه مضمون

عن التحليق .. ولذلك فما عاد يصلح للحياة في البنيون . فيهرب الى سراديب الليل حيث تمش الخفافيش التي يخنقها ضوء الحقيقة .

## (٧) منصور باهي .. الفكر والخوف والخيانة

إذا كانت مأساة حسني علام وليدة كذب طبقت له الى الوجود والقارب موشك على الفرق ، فان مأساة منصور باهي نابغة من داخله ، من احساسه العميق بالضعف ومن عجز ارادته عن الارتفاع الى مستوى وعيه ، هذا العجز الذي يدمر حياته والذي يطل علينا منذ الكلمات الاولى للقصم الذي يروي « قضى علي بالسجن في الاسكندرية وبان أمضى العمر في انتحال الاعذار » ومأساة منصور باهي تلك وثيقة الصلة بمأساة صابر في ( الطريق ) وعمر في ( الشحاذ ) وانيس في ( ثرثرة فوق النيل ) ، فهي من نفس الجنس الذي تنتمي اليه مشكلات هؤلاء الأبطال الروائيين . ولذلك فانها تستخدم في داخله بصورة مستمرة ، فيحس بان العفن يجري مع الهواء في كل موقع . ولعله يصدر اصلا من داخله . وهو بالفعل يصدر من داخله الذي تعقب في كل ارجائه رائحة العفن الخبيثة ، والذي تضطرم فيه عشرات الرغبات والافكار ، يقتلها التردد الطويل بين الاقدام والاحجام ، والاستسلام للواقع الذي يرفضه فلا يجد بدا من انتحال الامذار والمعاناة من الاحساس بالندم والتمزق والضياع الذي يعيش منصور في جحيمه طوال الايام التي يقضيها في البنيون ، لا تخفف منه تلك المحاولات الساذجة المتسمة بالعناد الطفولي لتبرير ضعفه وعجزه معا . فتحت وطأة عمى الكبرياء يحاول ان يقنع نفسه بأنه لم يستمر في كفاحه القديم لانه كف عن الاقتناع به وعن الايمان بفكرياته . ويخفف هذا التبرير من الامه لكنها توسوس كجرح قديم ما يلبث ان ينفجر كلما هاجت احزان الماضي القديم فينتدق منه الصديد والعفن .. هذا الجرح يستيقظ من جديد فيكتوي منصور ببيرانه طوال فترة اقامته في البنيون ، والذي تمتد جلوره الى الفترة التي كان فيها طالبا بالجامعة في هذه الفترة عرف استاذة فوزي . وعرف معه « بيان من الافكار راسخ الأساس .. صراعات طبقية . احلامدموية - كتب وتجمعات » وفي هذه الفترة ايضا عرف درية . احبها واحبته ، ولكنه ضعف امام حب فوزي لها . تيقن من ضرورة ان يصارحه بانها متحابان . لكن ارادته لم ترتفع ابدا الى مستوى هذا اليقين . وفجأة انتزعه اخوه الاكبر - وهو ضابط امن كبير - من هذا الجوع عنوة .. « ولا كلمة .. ساقطلك من هذا الوكر ، ألم تسرع بأبك الى القبر ؟ .. »

ستذهب معي الى الاسكندرية ولو اضطرت الى اخذك بالقوة . فانك فر جاهل . ماذا تحسبهم ؟ .. اطلاقا ! .. هه ؟ اني اعرفهم خيرا منك . ستذهب معي طوعا أو كرها .. » ينتزعه اخوه من هذا الجوع عنوة . ويصحبه الى الاسكندرية حتى يكمل دراسته بها . ثم يعمل مذبعا باذاعة الاسكندرية ويقدم برنامجا ناجحا عن ( اجيال الثورة ) التي فشل هو في أن يكون واحدا من اجيالها او من صناعها ، معللا النفس بأنه ما عاد يؤمن بهذه الافكار القديمة .

لكن ها هو الاخ الاكبر ينتقل الى القاهرة ، فينتقل منصور - بتوصية منه - للاقامة في بنيون ( ميرامار ) . قاطنا اخر الحجرات الثلاث المظلمة على البحر - فيالصراة التخطيط الروائي الذي يدبر لكل شيء - وما هو الماضي ينفجر امامه من جديد ذات صباح بين طيات هذا الخبر الصغير الذي القى على سمعه همسا « قبض على أصحابك أمس » .. تعقبه كلمات لزجة تشني على حكمة اخيه ، ويستيقظ هذا الماضي بضربة واحدة ليعيش منصور من جديد في قلب دوامته وبين ذبوله الباقية .. يهرع عقب سماع الخبر الى القاهرة . وينهب الى منزل فوزي حيث تستقبله درية في ثياب الحداد الشفيفة . فيعرف منها انه قد قبض عليهم جميعا . وانها اصبحت وحيدة بلا مورد . فقد كان فوزي أستاذا مساعدا بكلية الاقتصاد ولكن بلا

مدخرات .. وكان لا بد مما ليس منه بد . فحوم الماضي دفعة واحدة حول الجوع المقبض الذي ينسج فيه الحجرة التي ترمقهم فيها صورة فوزي . واجتاحت العذابات القديمة وهو يحدثها عن محاولاته الفاشلة للعودة بعدما انتزعه اخوه من بينهم عنوة .. حيث قبل وقتها ان يسعى للعودة ليعمل عينا لآخيه ، وباءت المحاولات بالفشل . وما هو الان يكتوي ببيران الاحساس الزائف بأنه كان يجب ان يكون الان معهم . ولكن درية ترى ان لا جنوى من تعذيب نفسه فيتنصرف معتزما ان يعاود زيارتها من جديد . وفي الليلة نفسها تاتيها فكرة كتابة برنامج عن ( تاريخ الخيانة في مصر ) .. وفي هذه الليلة ايضا انصحت في أعماق الصورة الرئيسية لكونات عذابه .. « ان تؤمن وان تعمل فهذا هو المثل الاعلى . الا تؤمن فذاك طريق اخر اسمه الضياع . ان تؤمن وتعجز عن العمل فهذا هو الجحيم » ( ص ١٦٢ ) وطوال فترة اقامته في البنيون يعيش في جحيم هذا العذاب الرهيب الذي تقصر فيه الارادة عن الارتفاع لمستوى الوعي .. هذا القصور الذي افقده في الماضي حبه القديم لدرية ، بل حبهما المشترك معا ، فلو ارتفعت ارادته الى مستوى وعيه ساعتها وخاطب فوزي لانقلبت حياته رأسا على عقب . ولو ارتفعت ارادته الى مستوى وعيه عندما حاول اخوه ان ينتزعه من جو القاهرة وافكارها . وفعل ما يستوجبه وعيه الذي تفجرت فيه تلك الصرخة الفاضبة « انك تقضي علي الى الابد » لتغيرت صورة حياته كلية لكن عجزه تركه سادرا في ضياع ما لبث ان استحال الى جحيم .. وما هو اليوم لا يكاد يتحرر من الاحساس بالذنب الذي سيطر على حياته منذ قر في نفسه أنه هو الذي أسرع بأمه الى القبر ، ذلك الاحساس الجهنمي الذي يتقذى على اليأس . واليأس يدفع للتهور ، ولان يداوي المريض الداء بالداء .. ومن هنا يجد نفسه مندفا في تيار من الحماقات التي لم تجر له في بال . فهتف بدرية « انسي احبك كما احببتك في زماننا الاول » وعندما يصعقها وقع المفاجأة ، يعلل النفس بأنه سيجد في الرسائل شجاعة أكثر .

حتى هذه اللحظة لم يكن منتبها لذلك الصراع الذي يدور في البنيون ، كان يعيش فيه بجسمه فقط ، يشغله عنه ذلك الصراع الذي يتلاطم في باطنه والذي دفع سرحان البحيري الى أن يصفه بأنه « يبدو ملتصقا بذاته فوق ما يتصور العقل » ( ص ٢٢١ ) حتى استيقظ فجأة - وقد توافقت هذه اليقظة مع رؤيته الى ماضيه ومحاولته بعثه على اصوات الحركة الاولى التي دارت في البنيون بين حفية بركات وكل من سرحان وزهره . وعرف بتفاصيل القصة فوجد نفسه يهتف « الخيانة هي الخيانة على أي حال » .. ووقع القول من مسمعه موقعا غريبا فاجعا . ووجد له في فمه طعم السم وعواقبه . فحنق على سرحان ضمن حنقه على نفسه ، ولعنة الف لعنة ( ص ١٦٧ ) . ومن هذه اللحظة بدأ يتابع تصرفات سرحان ..

وأخذ يصب عليه كراهيته لنفسه ، وضيقة بالعذاب الذي يعيش فيه . اذ وجد فيه بديلا تعويضيا لذمته على نفسه ، ولاحساسه المريض بالذنب . وبدأت تنمو كراهيته لسرحان بموازاة انغماسه في الحماقات مع درية . فلولا انه علق جزءا كبيرا من مأساته على مشجب شخصية البحيري التي رفضها ، لما استطاع ان يمضي في الشوط حتى آخره . وبدأت الكراهية تستعر ، يغذيها تعاطفه الشديد مع زهرة . واعجابته باعتبارها التعليم ، وبقوة ارادتها وقتتها بنفسها وتصميمها الراسخ على فعل ما تريد وما تعتقد . وسعد بها « لبثت منفصلا بالسعادة والاكبار ، وانا منفرد بنفسي في الحجرة المفلقة . كان الطير يهطل . وهدير الامواج يتتابع في دفعات مذبذبة متقطعة ، راطنا بلغته المجهولة . ثم مضى الانفعال يهدأ وينخفض ويبرد حتى انداح في مستنقع من ماء آس يشاه زبد الكتابة . ان الصعود يذكر بالهبوط . والقوة بالضعف . والبراءة بالعفن . والامل باليأس . وللمرة الثانية لم أجد من أصب عليه جام غضبي الا شخصية سرحان البحيري » ( ص ١٦٨ ) .

وتكررت لقاءاته بدرية في حديقة الحيوان وتحت شجرة الكافور



- كالزمن الماضي - في كازينو الشاطئ، .. اليهما جاءت ديرة هربا من ان تبقى وحيدة مع رسائله التي 'رسلها بعد زماها بأربع سنوات. ولشخص لا وجود له . ولكنه يؤكد لها ان هذه الرسائل تتضمن أشياء تتجاوز بطبيعتها الزمان والمكان .. وهو تعيس وضعيف . فهو في رأي الآخرين جاسوس وفي رأي نفسه خائن .. وها هي لعبة الاعتراف تؤتى ثمارها . ويلمس حديثه ذلك وترا حساسا في اعماقها . فهي الاخرى يمزقها اخلاصها الزائف . وتعتقد انها خائنة منذ قديم الزمان . خائنة بسكوتهما على حب فوزي بينما كانت تحب منصور .. خائنة باخلاصها الزائف له .. ابيه .. هاهما يرران السقوط ويفلسفانه . ومن ثم يتدهوران معا باكثر مما تصورت ، كما تعترف هي ( ص ١٧ ) خاصة وقد وجد منصور في اعماقه بعدما أحس بان جوهر ماساتها أنها يتمزقان بلا سبب حقيقي « رغبة طاغية تدفعه الى الحضيض . كأنما الحضيض غاية مشودة تطلب لذاتها . أو كأنما الجحيم امسى هدف الانسان النهم الى السعادة » ( ص ١٧ ) .. فانحدرامعا حتى زكمت رائحة انحدارهما الانوف . وحتى وصلت تلك الرائحة الكريهة الى الغائب خلف الاسوار ، فأرسل الى زوجته يمنحها الحرية حتى تتصرف في مستقبلها كما تشاء .

عندئذ انفجر الجرح .. فهاهو الطلاق الذي علق عليه كل شيء يأتيهما وحده ، ليضعه من جديد فوق الحافة الحرجة الجهنمية التي تهتف .. عليه ان يتخذ قرارا . فالحلم يستأذنه ليشرب الى عالم الحقيقة . ولكنه غير سعيد « يجب ان أكون صريحا مع نفسي بل أبعد ما يكون عن السعادة ! اني قلق وخائف .. وليس ما بي شعور بالندم او الخجل .. انه ملتصق بذاتي دون غيري . ملكي الشخصي واذا لم اكن في موقف دفاع عن سعادتني ففي اي موقف أكون ؟ .. وبلغ الخوف والقلق بي مبلغا لم أعد أكثرث معه لعواطفها أو حتى مجاملتها .. أفقت من سحرها كأن هراوة صكت رأسي . تحررت من سيطرتها . وارتفعت في باطني الفلق المضرب المذعور موجة سوداء من النور والتمرد والقسوة . لم أجد لذلك تفسيرا الا يكن الجنون نفسه . فقلت بهدوء مخيف .. ديرة .. لا تقبلي هبته الكريمة » ( ص ١٨٧ ) .. عند ذلك حملت في وجهه ذاهلة غير مصدقة . تعيسة غاضبة .. زلزلتها الكلمات فطلبت تفسيرا ، لكنه ليس لديه مايقوله سوى انه يكره نفسه ، وعليها الا تقترب من رجل يكره نفسه . فقد استيقظت تحت وطأة المفاجأة .. الى غرفة في بشاعة الخيانة حتى الاذنين فكره نفسه .. ولم يقب عنه في لحظة الفراق الاخيرة بعد ان تركته تعيسة غاضبة « ان ذلك الكائن المخلخل المقهور الذي يختفي في تيار السابلة هو حبه الاول وربما الاخير في هذه الدنيا .. وباختفائها هوى السى الحضيض » ( ص ١٨٩ ) .. وتحت وطأة الاحساس الرهيب بالذنب والخيانة والرغبة في التعويض والانتقام من الذات مصا ، يعرض على زهرة الزواج منه بعد تخلي سرحان عنها .. يعرض عليها الامر باخلاص وجدي لكنها لا تستطيع ان تقبله . وتنصحها بالعودة الى فتاته . فيرتد من جديد الى فراغ . الى دوامة السقوط والضياع .

وهو يعي سقوطه ذلك . يعيه ويحاول ان يقهره ولكن دونما جدوى .. يحاول ان يقتله في شخص سرحان البحيري الذي قال لنفسه الويل له اذا غدر بها . « وتملكته بغتة فكرة غريبة او رغبة منحرفة . وهي ان يقدر بها لينزل به العقاب الذي يستحقه » ( ص ١٧٦ ) ..

وها هو يقدر بها فعلا - على صعيدي الاصل والبديل معا - فيبقى « على وجهه ، وجه كل وفد وكل خائن » ( ص ١٨٤ ) ويشيبكان في عراق عنيف . لكن العراك وحده لا يشفي غليله . فهو منغمس في حماة هذا العراك منذ امد طويل دونها جدوى . لذلك فانه يريد ان يقتله لانه موقن من انه الجرعة السامة التي يمكن ان يتداوى بها . لهذا فطيف اتمام مراسم قتله يداعبه في احلام يقظته . « ويقول لهذا الطيف اللعين :

- ليس من أجل زهرة .. ليس من أجل زهرة فقط :

- اذن لم ؟ !

- لا حياة لي الا بقتلك

وينذره الطيف .. - ولكنك ستقتل أيضا .. انسييت ؟ !

فيجتاحه شعور المهاجر الذي ودع المدينة بكافة همومها . نمل بهذا الشعور ، وتيقن من ضرورة الاجهاز عليه فقتله « ( ص ١٩٧ ) . لكنه لا يقتله ! لا في الحلم فقط . لكن في الواقع ستجد ان الامر يختلف .. فعند تنفيذ الجريمة الحقيقية يجد انه قد نسي المقص الذي قران يجهز به عليه . نسيه في البنسيون فتضاعف غضبه على نفسه . وعلى السكران - سرحان - المنعم بفيوبية لا يستحقها .. وجن جنونه فانها على بطرف الحذاء حتى افرغ غضبه وهياجه . وتراجع الى السياج وهو يترنج من الاعياء مرددا « لقد قضيت عليه » .. لكنه لم يقض عليه .. ولا حتى استطاع ان يقدم للحكمة مبررا جديا لرغبته في قتله .

ان منصور كما يقول عامر وجدي - فتى رائع ولكنه يعاني داء خفيا وعليه ان يسرا منه ( ص ٢٧٨ ) وهو يعاني من داء العجز العضال .. ومعاناته من هذا الداء هي التي تدفعه الى حب زهرة التي شر فيها على الثقة وقوة الإرادة معا .. فوضوح غايتها يرافقه عظيم ثقنتها في نفسها وفي قدرتها على تحقيق هذه الغايات . فهي الوجه المناقض لضعفه ، ومن ثم يحترمها ويعرض عليها الزواج بجدي في لحظة انهياره وعقب عجزه عن الاستمرار في علاقته مع ديرة بعد طلاق فوزي لها .. وهو يدرك هذا جيدا لانه يعرف « ان الحياة لا تجود بنفسها الا للكفاء » ( ص ١٨٠ ) وانه ضعيف ممتلئ بالاحساس بالذنب وبالخيانة . وتركة الرواية وهو يعاني من هذا الاحساس الذي حاول بصورة جنونية ان يفتك به، ولكنه فشل . تتركه يصارع السقوط والضياع بعدما عجزت ارادته عن الارتفاع الى مستوى وعيه . وعندما فشل في ان يكون كغشا للزواج بزهرة او الحصول على احترامها .. الحقيقي . فلو سقط ضوء عينها على حقيقته لما فاز بغير احتقارها .. ولنتنقل الان الى اخر الشباب في هذا البنسيون الغريب .. الى الشاب القليل المنحدر سرحان البحيري .

## (٨) سرحان البحيري .. ورحلة البرجوازي الصغير الخالدة

اذا كانت مأساة منصور باهي تربطها وشائج عديدة بابطال روايات نجيب محفوظ الاخيرة ، فان مأساة سرحان البحيري ترتد بنا الى ابطال رواياته الاجتماعية .. لانها مأساة البرجوازي الصغير الذي تصفقه رغبته في التسلق والحصول على مزايا الطبقة العليا .. هي مأساة محجوب عبدالدائم في ( القاهرة الجديدة ) وحيدة في ( زقاق المدق ) وحسين في ( بداية ونهاية ) .. هي نفس مأساة هؤلاء الابطال القدامى ولكنها الطبعة الجديدة من هذه المأساة .. اخر طبعة منها ، طبعة الستينات بلامحها الخاصة وسماتها المميزة . لانها تقدم لنا صورة الانتهازي الذي حاول ان يستغل الثورة المصرية ، وان يسلق في غفلة منها على اكتافها . فسرحان البحيري كان عضوا بهيئة التحرير ثم الاتحاد القومي ، وهو اليوم عضو بلجنة العشرين . وعضو مجلس الادارة المنتخب عن الموظفين والمتطوع لحل مشكلات العمال . ولكنه برغم ذلك يشترك مع زميله المهندس علي بكير - الذي لا يعرف الفرق بين ( الوفد ) و« النادي الاهلي » - في محاولة لسرقة لوري من الغزل يبيعانه في السوق السوداء ، معتقدا ان مال الشركة التي يعملان فيها - وهي احدى شركات القطاع العام - مال بلا صاحب .. ويدبر خطة السرقة في نفس الوقت الذي ينهب فيه الى الفر العام للاتحاد الاشتراكي للاستماع الى محاضرة عن السوق السوداء .. فشعاره الاثير هو « اريد ان أفيد واستفيد » ( ص ٢٢٢ ) .

تحت هذا الشعار رافق صفة بركات زما .. عاشا حياة مشتركة بكل معنى الكلمة .. عدا بعض المجاملات التي كانت تنفعها بها في المناسبات ، والتي عجز - لظروفه الخاصة - عن ردها .

يصعد في احدها درجة واحدة في السلم الاجتماعي .. يتحطم مصعد الزواج بعد ثورة زهرة ومناقشتها لعلية واهلها الحساب .  
 .. ثم ينهار مصعد الثراء مدبرا معه امنه بعدما تنكشف السرقة، ويقع السائق في قبضة البوليس ويعترف بكل شيء . وتأتيه هذه الاخبار المفجعة وهو تحت وطأة الخمر التي اعجزته عن ان يفكر جيدا في صناعة سلم ينسلق عليه فينجو من الجريمة . ويطلب من البارمان موسى حلقة يقطع به شريانه وينتحر .. ينتحر في نفس الليلة التي غادر فيها بنسيون ( ميرامار ) الى بنسيون ( ايفا ) فيا له من توافق دال ! ويا لها من مصادفة مصنوعة ! .. وهي ايضا نفس الليلة التي تعارك في صبيحتها مع منصور باهي بعد ان أعلن غدره لزهرة سافرا .. ينتحر بعد ان تنهاى فجأة كل المصاعد التي حلم بان تنقله الى الحياة الرخيصة المنعمة بالفيلا والراة والسيارة .. تنهاى لتتكشف عن هوة عميقة تفتح فاهها لتبتلع . فيؤثر الانتحار على ظلام هذه الهوة العميقة التي لا يعرف لها قرار . وبانتحاره يموت بصيص الامل الشاحب في العثور على عريس كفاء لزهرة من بين سكان هذا البنسيون كله ، ولا نعرف ماذا يخبئ له العام الجديد ؟! . وبموتها ينتهي القسم الرابع والآخر من هذه الرواية .. أو بمعنى آخر تتكامل أبعاد الموضوع الذي تقدمه . ولا يبقى بعد ذلك سوى تعليق صغير لعامر وجدي . نعرف منه مصير كل من زهرة ومنصور . وتنتهي به الرواية وهو لما يزل يردد آياته الاثيرة من سورة الرحمن .. تلك الآيات التي تؤكد ان الدنيا ما زالت بخير . وأن هذه الحياة المثقلة بمآسي الذبول والسقوط والضياع والخيانة ما زالت ممكنة بل ورخيصة .. وأن وقت زهرة لم يضع سدى . فقد أكدت الرواية ان معرفتها بعدم صلاحية كل هذه النماذج الشائنة لها هي طريقها الى معرفة الصالح النشود .

#### (٩) أي بنسيون غريب ذلك !؟

قلت من البداية ان ( ميرامار ) انشودة رثاء عميقة لسدروب الفشل والضياع والاحباط التي يتخطب فيها الواقع .. وللانماط التي ضاعت وتشوهت تحت وطأة هذه الدروب وفي ظلمة سراديبها الخائفة . مرثية تحمل في داخلها البذور الجينية لاغرودة ميلاد لم تكن بعد . ومن ثم ترين في افقها سحب النشاؤم والقناتمة التي تدفع القارئ الى ان يتساءل في النهاية مروراً : أي بنسيون غريب ذلك !؟ واي بشر تصعب مكانه ؟ ليس فيهم شخص لا تغفل الهمزة في اعماقه حتى النخاع . فلا أمل يرتجى من كل شخصياته . عجوز غريب تجاوز الثمانين . وصف بالاحقاد مرة وافترى عليه باللوطية مرات . ومع هذا فهو الوجه الوحيد المشرق الذي يطل على افق هذا البنسيون الرهيب . يطل عليه ليعيش ايامه الاخيرة يجتسر التذكريات في انتظار النهاية .. يتسلى بقراءة سورتسى ( القصص ) و ( الرحمن ) . القصص بذكرياتها القديمة وعبرها الجلييلة . والرحمن بما فيها من نزعة الى الرضا بالواقع مهما كان وايا كان ، فباي آلاء ربكما تكذبان ، ثم عجوز آخر عميل وداعر وحاقد وسقيم ، يقف على حافة الجنون من الفيض والقهر والكره والاحباط . ثم ثلاثة من الشبان .. اولهم هو النموذج النمطي لآخر ما أفرزته الطبقة الاقطاعية التي يوشك قاربها على الفرق ( حسني علام ) . ولأنه النموذج النمطي لانياء هذه الطبقة في هذه المرحلة من تاريخها نجده يمثل المتوسط الحسابي لمجموع افرادها في هذه المرحلة من تاريخها . وهو القاسم المشترك الاعظم لهؤلاء الافراد .. بيناته المحكم وغروره الاعمى ولا مبالاته واغراقه في الجنس .. وكان هذه الطبقة لم تنجب ابدا اسوياء .. والاسوياء من ابنائها - اخوه واخته - لا يعيشون في البنسيون ولا حتى في مصر كلها .. والشباب الثاني - منصور باهي - نموذج نمطي للمثقف المغترب الذي تتحدث عنه الكتب كثيرا ، ولا يعرفه الا قليلا .. داخله يجتمع العجز والضعف والخيانة والتسرد .. الوسط

.. لا يهتم . فآخرون غيره يستفلون عشيقاتهم استغلالا بشعا .. ومن اجل هذا الشعار أيضا تملق طلبه مرزوق وحسني علام ، ابني الطبقة التي يعلم بأن يرثها بطريقة ما ( ص ٢١٧ ) .. ومن اجله أيضا يفامر بالاشترار في عملية سرقة الفزل ، لانه لا قيمة للحياة لديه بلا فيلا او سيارة او امرأة ( ص ٢٠٧ ) . ولان الاسعار ترتفع والمرتبات تنخفض والعمر يجري ( ص ٢٠٩ ) .. يوافق على الاشتراك في هذه العملية المشينة دون مقاومة تذكر ( «مقاومته الحقيقية كانت قد انهارت منذ زمن بعيد» ) ( ص ٢٠٩ ) فهو منذ اللحظة الاولى في القسم الذي يرويه يتحرق توقا الى هذه الحياة الرخيصة المنعمة . اول كلمة في هذا القسم هي ( هاي لايف ) .. ومن اجل هذه الهاي لايف التي يعلم بها يضحي بكل شيء ، بصفية اولا ثم بزهرة بعد ذلك . فما عرف الاخلاص ولا أرقته يوما عذابات الضمير .. كل ما يقوده في الحياة ، قرنا استشعار حساسان للمنفعة .. قرنان واضحان في جلاء يدفع طلبه مرزوق الى التأكيد على انه ( «ولد ذكي ، وما تحت البذلة الا مجنون بالترف» ) . شهادة تجيء من مراقب حساس يدرك من الوهلة الاولى بان هذا السرحان ليس الا أحد النور المتيقظة التي تموج بها تلك الغابة التي يتعارك ابناءؤها على اشلائهم .. هو وحسني علام وكل ابناء طبقتهم . بهذا المنهج النفعي عاش سرحان كل حياته .. منذ أيام التلمذة بالجامعة عندما كان عضواً بلجنة الطلبة الوفديين . لم يكن ابدا وفديا مخلصا كما يقرر زميله الوفدي المتمصب رأفت امين . وهو لهذا يشك في اخلاصه للاشترارية منذ الوهلة الاولى ، بل انه يعترف لنا بنفسه .. ( «لم اكن اهتم في أعماقي بالسياسة رغم نشاطي الوفور» ) ( ص ٢٥١ ) فهذا النشاط الوفور ليس الا مجرد محاولة لامتلاك بعض المفاتيح التي تقوده الى هذه ( الهاي لايف ) المتفتاة .

قلت ان كل ما يقوده في الحياة قرنا استشعار حساسان للمنفعة .. لهذا فانه يفتد الى البنسيون سعيا وراء شهوة كالتي قادته الى صفة في الجنفواز ( ص ٢١٥ ) .. وراء زهرة يأتي الى البنسيون بعدما تأكد من أن الصنارة قد نشبت . وفيه يتطلع الى التعرف بتزليبه الجديدين حسني علام ومنصور باهي ( «بغريزة لا تني عن الاكثار من المعارف والصحاب . ودائما تنظر الى الوجه الجديد بعين صياد» ) ( ص ٢٢١ ) .. وعندما يبادل طلبه مرزوق حديثا عاديا لا معنى له يحرص طيلة الوقت على احترامه والتودد اليه . الى كل شيء ينظر بهذه العين المتطلعة الى المنفعة ، الراغبة في تحقيق الحياة الرخيصة المنعمة بالفيلا والسيارة والراة .. لذلك فهو يحاذر من ان يتحرف مع حب زهرة الى الهاوية فيفرز قدميه في الحافة رايما ينقله الى الوراء .. ويرفض الزواج منها ، لانه يرى ان «الزواج مؤسسة .. شركة كالشركة التي تعمل بها . له لوائح ومؤهلات واجراءات . اذا لم يرفعتي من ناحية الاسرة درجة فما جدواه ؟ . اذا لم تكن العروس موظفة على الاقل ، فكيف افتح بيتا جديدا يستحق هذا الاسم في زماننا السرر ذلك ؟ .. اما مرجع تعاستي فهو اني احببت فتاة غير مستوفية لشروط الزواج . ولو قبلت حبي بلا قيد لضحيت فسي سبيلها الزواج الذي احن اليه منذ البلوغ» ( ص ٢٢٨ ) .. لكن زهرة ترفض هذا الحب الهريب المتحلل من المسؤوليات ، العاري من القيود ، لانها تاتي ان يجعل منها امرأة مثل صفة محققا بذلك امنية طلبه مرزوق .. فيوقن عند ذلك من انهما لن يتلاقيا ابدا ( «هي تجبه ولكنها ترفض التسليم بلا قيد . وهو يحبها ولكنه يرفض القيد . ولا هذا ولا ذاك بالحب الحقيقي الذي تمنحي عنده الإرادة والعقل» ) ( ص ٢٢٦ ) .. وهو لذلك يزن مدرستها بعقل بارد ، طبقا لمنهج الاثير ، فيجد أن فيها مارهه ( « قدرت المرتب والدروس الخصوصية . وتذكرت في ذات الوقت ياسي المتزايد من زهرة . وفي أسرتها عثرت على افراد جديد ، وهو ملكية والديها لعمارة متوسطة بكرموز » ) ( ص ٢٢٤ ) ، ثم ينتصر العقل على القلب ولا يبقى سوى اعلان الخطبة . وفجأة تنهار كل المصاعد التي اعدها .. تتمطل كلها قبل ان

الحسابي أيضا لكل الصفات المرذولة في المثقفين . ان فيه تردد هاملت وتشككه ، ولكنه يفتقد الى سموه ونبالته . وفيه انحطاط جوليان سوريل - بطل ( الاحمر والاسود ) - ولكنه يفتقر الى انسانيته . فشخصية منصور برغم انها اكثر شخصيات الرواية انسانية واقناعا ، فهي شخصية عصابية ومليئة بالتجريد في الوقت نفسه . اما الشاب الثالث - سرحان البحيري - فهو الصورة النمطية للانهزامية منذ قديم الازل ... ناعم نعومة الثعبان . لزج لزوجة مخاط الحلق الاصفر .. وغد وجبان ولا يتورع عن ان يبيع نفسه للشيطان مقابل تحقيق منفعة . كل تصرفاته محسوبة ومقاسة سلفا . بل ان نهايته هي الاخرى نمطية ومعروفة من البداية .

هؤلاء هم سكان البنسيون الشبان الثلاثة .. لا احد فيهم يصلح لزهرة . لا الاقطاعي ولا الشيوعي الخائن المرتد ولا حتى بلديتها الانتهازي . ولا حتى ممثل الرأسمالية الوطنية محمود ابو العباس القابع في كشكه امام العمارة .. لا احد منهم يصلح لها ، ولا يضم البنسيون سواهم ، لا ادري لماذا ؟ .. وبرغم بصيص النور الذي يشي به الحديث في نهاية الرواية ، يرين على جوها ذلك التشاؤم المغمم الجسم لروائح الخواء والهزيمة .. وتمتلىء ثنابها بتبويبات مختلفة على اللحن التراجيدي الرئيسي الذي تقدمه الرواية .. لحن السقوط والضياع والهزيمة . وعلى الصعيد الرمزي الذي يطل بوضوح عبر الرواية ، بل ويفرض نفسها عليها بشكل سافر ... يبرز تساؤل ملح .. لماذا لم يضم البنسيون ، وهو صورة للعالم الكبير ، للحياة وربما مصر ، غير هذه النماذج المريضة بصورة او باخرى ؟ انراه يؤرخ لرحلة يترك بعدها البنسيون فارغا او شبه فارغ ليستقبل سكانا جددا ، بل وملاكا جددا أيضا أم ان الاحكام البنائي الذي يخضع له كل شيء في الرواية ، هو الذي حتم عليه هذا ، حتى يقسر الاحداث على ان تنفل وجهة نظره وان تعبر عن رؤياه ، وحتى تسيير الرواية في الخط الذي ينتهي بها الى ما يريد ان تقوله ، او ما يريد بها - الكاتب - ان تقوله . لانها برغم معالجتها للواقع والتصاقها بهوموم تنطلق اصلا من الفكرة ، من البناء الفكري المسبق ، ثم تختار من الواقع ما يتواءم معه من جزئيات وشخصيات واحداث .. فقد كان هناك دون شك من يصلح زوجا لزهرة على صعيد الشخصية الانسانية او الرمز . ولكن الكاتب آثر ان يسقطه من حسابه او حتى ان يشير الى امكانية وجوده ، اكتفاء منه بتسجيل لحظة سكنوية من لحظات حركة الواقع او وجوده ، وليس لحظة جدلية حية تشي وقائنها بامكانيات مستقبلها .. وهذا هو ما يدفعنا الى ان ننتقل اخيرا الى بعض القضايا والملاحظات الفنية التي تطرحها الرواية بالرغم من مناقشتنا لبعضها في مطلع هذه الرواية واثناء دراستنا لشخصياتها واحداثها .

## ١٠ - قضايا وملاحظات فنية

من الوهلة الاولى سيفتقر الى السطح ذلك التساؤل الذي ينحت ملامحه من شكل الرواية الفني : لماذا كتب نجيب محفوظ روايته تلك في صورة رباعية ؟ وهل كان باستطاعته ان يقدم لنا نفس هذا الموضوع دون اللجوء الى هذا الشكل الروائي وبالاعتماد على القصة المباشر كما فعل في رواياته السابقة ؟ وهل في طبيعة هذا الموضوع ما يحتم استخدام هذا الشكل الجديد ؟ .. يفرض هذه التساؤلات من البداية ليس شكل الرواية فحسب ، ولكن ما ترتب على هذا الشكل الجديد من تكرار للكثير من الاحداث ايضا .. واجابة على هذه التساؤلات اقول ان هذا الاسلوب الروائي الجديد الذي تقدمه الرواية ، ليس الا احد وجوه الموضوع الذي تقدمه . فتقسيم الرواية الى اربعة اقسام جديدة وتقديمها بهذا الاسلوب الذي يستعيره نجيب محفوظ من اسلوب الرباعيات الشهير في الآداب العالمية والذي استعمله لورانس واريل في ( رباعية الاسكندرية ) ووليم فوكز في ( الصخب والعنف ) والذي تجده في ادبنا العربي عند فتحي غانم في ( الرجل الذي فقد ظله ) - واحد من وجوه الموضوع الذي تقدمه .. لان هذا الاسلوب لا يحكي

الاحداث فحسب ولكنه يؤكد لنا انفصال الشخصيات عن بعضها بشكل واضح ودوران كل منها في فلكها الخاص .. هذه الافلاك التي لا تتداخل ابدا ولكنها تنماس فقط . فكل منها علم على نمط من الانماط وعلى شريحة طبقية او فئة اجتماعية او مرحلة تاريخية . ولان هذه الشخصيات تعيش في عوالم منعزلة ، كل في فوقته الخاصة ، تتلامس لكنها لا تتداخل ابدا . كان لا بد ان تنعكس هذه الحقيقة على شكل الرواية الفني . وكان لا بد ان تستقل كل شخصية بقسم خاص نتعرف فيه عليها ، وتقدم لنا الاحداث عبر حداثها وتعلق عليها .. هذا في اعتقادي هو ما دفع الفنان الى تقديم روايته بهذه الصورة . غير ان التعليق الاخير الذي قدمه عامر وجدي على الاحداث ، والذي يبدو ملحقا بالرواية كزائدة دودية لا لزوم لها . يشكل ضعفا واضحا في هذا البناء الفني التماسك الجميل . ويعتبر ثغرة تخلخل تماسكه وتضعفه . فقد كان على الفنان ان يقدم لنا كل ما يريد ان يقوله عبر الاقسام الاربعة وحدها .. صحيح انه آثر ان يحجب بعض التفاصيل حتى النهاية ، ليخلق درجة من التوتر وليشد القارئ الى متابعة فصول روايته . الا انه ما كان عليه ان يحقق هذا الهدف الذي تتفوق عليه فيه اتفه رواية بوليسية ، على حساب البناء الفني للرواية .

هذا وقد ادى اسلوب القص بهذه الطريقة الى الاعتماد على النقلات السريعة بين حاضر الشخصية وماضيها ومستقبلها ، بين داخلها وخارجها .. الا ان التخطيط الذهني المحكم ما يلبث ان يطل علينا عبر هذه النقلات . ويتحكم فيها بسميتية دائمة وقسرية في بعض الاحيان . صحيح ان الاختيار بين معطيات الواقع والشخصية هو احد مهام الكاتب الاساسية . الا ان انطلاق الكاتب من الفكرة كان يدفعه في كثير من الاحيان الى التدخل الصارم الذي يحكم اغلب النقلات في الرواية .. ولناخذ مثلا القسم الخاص بعامر وجدي . سنجد على سبيل المثال لا الحصر انه يتذكر قوته الراهنة في لحظة عجزه الراهنة . ( ص ٤٠ ) ويتذكر ماضي طلبة مرزوق الحافل بالدعارة والعريضة عندما يسكر ( ص ٢٤ ) ويأتيه خبر اعتزام زهرة التعليم عند قراءته لمطلع سورة ( القصص ) . وينتقل فور سماع خبر خيانة سرحان لزهرة الى الشوات الذين خانوا الوفد ابان ازمة بنك التسليف عام ١٩٣١ - ١٩٣٢ ليحكمي لنا موقفه منها . وليست النقلات وحدها هي التي تخضع للمنطق الصارم بل الاحلام ايضا .. فهو يصحو من حلمه بالمظاهرة الدامية التي اقتحم فيها الانجليز ساحة الازهر على اصوات اقتحام صافية بركات للبنسيون ومشاجرتها التي دارت به . كما يصحو من حلمه بوفاة ابيه على صوت الشجرة الثانية بين حسني وزهرة وسرحان والواشية بالموت الوشيك لعلاقة زهرة وسرحان بعد انكشافها .. وغير هذه الامثلة كثيرة لا يخلو منها قسم من اقسام الرواية الاربعة .

وليست النقلات وحدها هي التي تزج تحت وطأة هذا التخطيط الهندسي الصارم . بل ان كثيرا من الشخصيات والاحداث تخضع له . بعضها يعانق التخطيط الذهني فيها العفوية والاقناع وبعضها يعانقه القسر ، لكن لا ينجو ايها منه .. على الصعيد الاول نجد ان عليه تسكن في الدور العلوي من نفس العمارة التي تقيم زهرة بنورها السفلى وهذا يعكس وضع كل منهما في السلم الاجتماعي في الرواية . وعلى هذا الصعيد ايضا نجد ان جنوح عامر وجدي الى قراءة سورتى ( القصص ) ( والرحمن ) دون غيرها متوائم مع حنينه الى القصص والذكريات القديمة من جهة ، ومع رضائه بالواقع وبحشه عن مواطن الجمال فيه من جهة اخرى . وعلى هذا الصعيد ايضا نجد ان كون سرحان البحيري هو الوحيد الذي تمتد اصوله او تقترب من المنطقة التي نشأت فيها زهرة متوائم مع اثارها اياه بالحب دون غيره من الشبان . اما على الصعيد الاخر - صعيد القسر - فاننا لا نستطيع ان نهضم القسر الواضح في تسكين النزلاء في حجرات البنسيون .. عامر وطلبة يسكنان في الحجرتين اللتين لا تطلان على البحر ، بينما يسكن الشبان الثلاثة في الحجرات الثلاث المطللة على البحر . ولا ان نفتقر تلك السيميتية الزاعقة التي تجعل المعجوز الوطني

التي تدور في نفس منصور قبل تلقيه خير طلاق درية والتي تمهد لموقفه الغريب منها لدى سماعه هذا الخبر . . . « يعجبني جو الاسكندرية . لا في صفاته واشعاعاته الذهبية الدافئة . ولكن في غضبانه الموسمية عندما تتراكم السحب . وتتعد جبال الفيوم . ويتكسي لون الصباح المشرق بدكنة المغيب . ويمتلئ رواق السماء بلحظة صمت مربب . ثم تنهذى دفقة هواء فتجوب الفراغ كندير او كمنحفة خطيب . عند ذلك ينمايل غصن او ينحسر ذبل . وتتابع الدفقات ثم تنفض الرياح ثلثة بالجنون . ويدوي عزيها في الافاق . . ويجلجل الهدير ويعلو الزبد حتى حافة الطريق . ويجمع الرعد حاملا نشوات فائرة من عالم مجهول . . وتندلع شرارات البرق فتخطف الابصار وتكهرب القلوب . . وينهل المطر فسي هوس فيضم الارض والسماء في عناق ندي . . عند ذلك تختلط عناصر الكون وتموج وتتلاطم اخلاطها كأنما يعاد الخلق من جديد . . وعند ذلك فقط يحلو الصفاء ويطيب اذا انقشمت الظلمات واسفرت الاسكندرية عن وجه مفسول . . وخضرة يانعة . . وطرفات متألقة . . ونسائم نقية . . عايشت العاصفة من وراء الزجاج حتى نعمت بالصفاء . شيء حدثني بان تلك الدراما انما تحكي أسطورة مطمورة في قلبي . وتخط طريقا ما زال غامض الهدف . أو تضرب موعدا في غمغمة لم تفهم بعد » ( ص ١٨٢ ، ١٨٣ ) . . ألا نحس عبر هذا التركيز الشعري على الطبيعة بكل ما يجيش في نفس منصور في تلك اللحظة الثرية المتوترة من حياته ؟ غير ان هذا المنهج الحساس الناجح في البناء الفني قد ينحرف عن غرضه اذا ما أسيء استعماله أو أفرط فيه . والحقيقة ان الرواية قد حومت بالقرب من هذا الافراط وان لم تسقط في معاية في جزئيات جد قليلة . . وهذا هو ما دفعني الى القول منذ البداية بان هذه الرواية انشودة رثاء طويلة تحمل في داخلها البذور الجينية لاغرودة ميلاد لم تظهر بعد . . على صعيدى الواقع والفن معا . . فلعلها تولد في وقت قريب ! .  
القاهرة  
صبري حافظ

( عامر ) معجبا بالنسوان البلدي وبذوات الملاءات اللفه، فوطنته السياسية قرينة لشعبيته القرامية . بينما العجوز العميل ( طلبة ) معجب طول عمره بالنساء الاجنبيات او بالمصريات المتفرجات . ولا يمكننا ايضا ان نفص الطرف عن ذلك الترتيب المحكم الذي وفدت به الشخصيات الى ارض البنسيون . كما لا نستطيع ان ننسى طبيعة الاختيار المتعمد للاسماء . فسرطان لا بد ان يكون شديد البقطة . ومنصور لا بد ان يكون مهزوما . ولا بد ان يكون الحس العملي الذي يتميز به الاول متناقضا مع اسمه . بنفس الدرجة التي يتناقض بها الحس التاملي الذي يميز الثاني مع اسمه . ولا بد ان تكون زهرة هي الزهرة النضرة المتفتحة التي يشتاقي الى اريجها الجميع . وعامر وجدي عامر فعلا بالذكريات والوجد والاشواق . . ولا بد ان يكون سرحان ، اول الشباب وفودا الى البنسيون هو اول من فاز بحب زهرة في الوقت نفسه .

بقيت ملاحظتان أخيرتان . . أولهما صفاء اللغة ورقتها وعذوبتها الشاعرية . وجنوحها الى استخدام الجمل القصيرة الحادة المرتبطة بلغة الفكر . وميل نجيب محفوظ الى استخدام الكثير من الكلمات العامية والجديدة . بعضها دلف الى قاموس مجمع اللغة الوسيط بينما البعض الآخر لم يدلف اليه بعد . فهو يستعمل كلمات بنسيون وبارفان ونجفة وراديو ومصران وطيارة وزباله وليس قمامة ، وكروسان وباص وكابتن وكازينو وترايبزه وشيزلونج وفنجال وبسكوت ولوري . ويستخرج من التليفون فعل تلفنت . . وغير ذلك . . يستعمل هذه الكلمات كلها ولكنه يصر في الوقت نفسه على استعمال صوان بدلا من دولاب .

أما الملاحظة الثانية فهي تركيزه الشعري على الطبيعة . واستخدامه لها ليس كخلفية مكملة للنظر ولكن كجزء أساسي منه . وكبديل في كثير من الاحيان ، بل في اغلبها لما يدور في داخل الشخصية من روى واحاسيس ولتنظر معا هذا التركيز الشعري الرائع على الطبيعة وهذا الاستخدام الحاذق لها كبديل لكل الاشياء الكثيرة العديدة المتصارعة

صدر حديثا

# العمل الفدائي

انه ارشاد تطبيقي ميسر لمزاولة حرب المقاومة الشعبية والعمل الفدائي على ارض يحتلها العدو ، ويرفض أهلها الاستسلام . فيه نظرة تاريخية وتقييم ممتع للعمل الفدائي: أصوله، وطرائقه، والأساليب الاجدى في الدعوة اليه وممارسته والظفر بعد أدائه . وهذا ما نحن في الوقت الحاضر في أمس الحاجة اليه . فالملؤف رجل خبر حرب المقاومة الثورية والانتفاض على مختلف أعداء الشعب في أميركا اللاتينية والحرب الاهلية الاسبانية ، وهو يضع جميع خبراته في متناسول اليد لكل من يود الانتفاع بتجارب السابقين . كما ان الترجمة سهلة متبسطة لا يعترها التباس .

انه كتاب كل مواطن ، الفدائي للمناقشة والتطبيق ، والمواطن العادي للتأهب كي يكون فدائيا يوما ما . لهذا نجده يشرح افضل السبل لنصب الكمائن ولغم العسرات المجنزرة ونسف مستودعات الذخيرة والتخلص من أفراد دوريات العدو . وفيه كيف يعيش الفدائي ورجل المقاومة ، وماذا يلبس في كل فصل ، وكيف يسلك مع الغير .

انه ثروة جاهزة للاخذ والتطبيق .

الناشر : دار الآداب بالاشتراك مع دار العلم للملايين

الثمن ٢٠٠ ق.ل.